حَفيف أوراق

الجزء الأول

عبدالحفيظ العمري

نوع العمل : عروض كتب

اسم العمل : حفيف أوراق- ج١

اسم المؤلف : عبد الحفيظ العمري

الناشر : المؤلف نفسه

الطبعة : الأولى - سبتمبر 2017م

حفيف أوراق

(عروض كتب)

الجزء الأول

عبدالحفيظ العمري

الفهرس

مقدمة

١. عودة العقل من غياهب النصوص

٢. مهندسو الخيال

٣. المثقفون...جدلية النخبة والفشل

٤. عندما نلعب مع الكون!

٥. التفسير الماركسى للإسلام

٦. اللغة الشاعرة

٧. تاريخ العلم

٨. الهمدانى عالما تجريبيا

٩. ثورات وخيبات وأشياء أخرى

١٠. أين ذهب تاريخ إب؟

السيرة الذاتية

المقدمة

عرْض الكتب واحد من صور المقالات المتعددة، وقد مارستُ ذلك زمنا لا بأس به، وأحببتُ أن أجمع مقالات عروض الكتب تلك التي نُشرت لي خلال الفترة الماضية في الصحف والمواقع الإلكترونية، فكان هذا الكتاب.

نلاحظ أن مادة عرض الكتب أصبحت مادة أساسية في أغلب المجلات والمواقع الإلكترونية الرصينة التي تتفاعل مع الجديد الصادر؛ مثلا في مجلة العربي الكويتية هناك باب (من المكتبة العربية) لعرض الكتب العربية، يليه باب (من المكتبة الأجنبية) لعرض الكتب الأجنبية الصادرة، وموقع الجزيرة لديها باب (المعرفة: كتب)، وغيرها مثل مجلة وجهات نظر، وجريدة أخبار الأدب، وجريدة الشروق، وغيرها الكثير.

ونجد موقع الداعية/عمرو خالد يقدّم نصائح ونماذج لعروض الكتب، يمكنكم قراءتها من هذا الرابط:

http://www.amrkhaled.net/newsite/books-how-publish.php

صديقي المهندس ياسر أبو الحسب لديه العديد من عروض الكتب التي كتبها في مدونته تحت عنوان (مراجعات كتب وذلك لكتب وروايات علمية صدرت (قرابة من ١٠٠مراجعة)، يمكنكم قراءتها من هذا الرابط:

/http://www.thenautilus.me

وقد نسمّي عرْض الكتب مراجعة كتب أو قراءة في كتاب، مع أن العرض والمراجعة أولى، لأن القراءة تفوق العرض كثيرا، وقد يشمل النقد ويمكن تقديم قراءة في مجمل أعمال كاتب ما.

بالنسبة لموقع goodreads فهو ليس موقع عرض كتب بالمعنى الحرفي – وإن تضمن أحيانا ذلك – لكنه موقع لانطباعات القرّاء حول الكتاب.

أخيرا قد يتساءل البعض عن كيفية عرض كتاب؟!

طبعا لا توجد وصفة جاهزة لعرض الكتب، لكني سأقدّم تجربتي المتواضعة حول ذلك؛ فأقول أني عند عرض أي كتاب أقوم بالتالي:

١ـ أقرأ الكتاب.

٢ـ ألخّص أفكار كل فصل/ كل مقال.

٣ـ أبحث عن الفكرة العامة التي يريد أن يوصلها الكتاب.

أما عن كيفية العرض؛ فالعرض – عندي- يتكون من ٤ أجزاء:

١ـ الجزء الأول: بطاقة عن الكتاب (اسم الكتاب – اسم المؤلف- تاريخ النشر- مكان النشر ...الخ).

٢ـ الجزء الثاني: مقدمة حول موضوع الكتاب؛ قد تكون مقولة ومناقشتها أو عبارة بدأ بها الكتاب...الخ، وربطها بالكتاب المراد عرضه.

٣ـ الجزء الثالث: استعراض لفصول/ مقالات الكتاب وذلك بعرض الفكرة الرئيسية في كل فصل/ مقال، مع التعليق على بعض الأشياء وربطها بمقالات مشابهة لي أو لغيري.

٤- الجزء الأخير: تقديم لمحة عامة عن الكتاب تتضمن رأيي الشخصي للكتاب بشكل عام، مع التركيز على مناطق القوة والضعف فيه.

ولا بد أن أشير هنا إلى أن:

١- العرض يعني رؤيتي وقراءتي أنا الشخصية للكتاب – سواء اتفقتْ مع الكاتب أو اختلفتْ، لذا يختلف عرضي عن عرض غيري.

٢- عرض الكتاب يختلف باختلاف نوعية مادة الكتاب هل هي علمية أم أدبية أم فكرية...الخ؛ فلكل نوع مناقشاته وأسلوب عرضه.

٣- لا يوجد كتاب بلا نقاط ضعف، ولا كتاب بلا نقاط قوة، والفارق هو النسبة بينهما، وهذه النسبة تختلف من قارئ لآخر.

٤- أي عرض يجب أن يناقش مادة الكتاب، وليس مجرد استعراض فقط، وكأن العارض موافق على كل أفكار الكتاب، بل هو مناقش لهذه الأفكار حالة عرضها.

هذا اجتهادي في ذلك، والآن أترككم مع الكتاب الذي يقدّم عروض لـعشرة كتب مختلفة الأنواع في فترات متباعدة.

عبدالحفيظ العمري

إب - اليمن

٢٢ سبتمبر ٢٠١٧م

عودة العقل من غياهب النصوص *

* نشر المقال في صحيفة مأرب برس – اليمنية – بتاريخ ٦ أكتوبر ٢٠١٣م

يقول الأستاذ البردوني: "كل كتاب يأتي من كتب، وكل مؤلف يبزغ من مؤلفين هذا في الأغلب"[١].

دارت هذه الجملة في ذهني، وأنا أقرأ كتاب الكاتب اليمني/عصام القيسي "عودة العقل"، وأحسست أن القيسي ثمرة قراءات عديدة لمؤلفين كثر - وهذا شأن كل كاتب - تلوح ظلال تلك القراءات في عناوين المقالات التي كوّنت كتابه ابتداءً من عنوان الكتاب نفسه "عودة العقل" الذي يحيلك إلى "عودة الروح" أو "عودة الوعي" للراحل توفيق الحكيم الذي انتقد في الكتاب الثاني الأوضاع في مصر للفترة من ١٩٥٢م إلى ١٩٧٢م؛ كما تحدث الكاتب القيسي نفسه قائلاً: "العنوان يحمل دعوة لإعادة تمكين العقل - الذي هو قرين النقد والإبداع ونقيض النقل والاتباع - في حياتنا، وهو يحاكي عنوانين للأستاذ توفيق الحكيم، الأول "عودة الروح" الذي يعد باكورة أعماله، والآخر عودة الوعي، الذي يعد أشهر أعماله السياسية"[٢]، لكن عصام القيسي ومن خلال ٣٤ مقالاً "يجمع بينها هم واحد هو هم تحرير العقل العربي عامة والعقل اليمني على وجه

الخصوص من مسلماته الزائفة، وأدواته العقيمة، اللاتي أثقلت كاهله وأحبطت مسيرته باتجاه البناء والتنمية"[٣] قدّم توصيفات كثيرة للعقل الذي ينادي بعودته بل وتحريره، فهو "العقل العربي [الذي] بحاجة إلى ثورة شاملة تعصف بأوهامه المقدسة واصنامه المكدسة وتعيد ترميمه بما يتناسب مع طموح أمة محترمة"[٤]، لأنه "العقل الذي يصدر واقعنا عنه"[٥]، بعد أن أصبح ـ أي العقل ـ "مقبرة خرافية الاتساع لآلاف المقولات والأفكار الفرعونية التي ورثها عن أجداده القدامى!"[٦]، لدرجة أن "أموات العقل العربي هم الحكام الحقيقيون للواقع العربي"[٧].

فـ"العقل العربي محاصر بالنصوص من كل اتجاه وهيمنة النص تأتي عادة على حساب العقل، فهناك النص الديني الذي تضخم على أيدي الفقهاء والرواة، وهناك النص الاجتماعي (العادات والتقاليد) الذي يحكم قطاعاً واسعاً من حياتنا، وأخيراً هناك النص السياسي الذي تكفّل بالاستيلاء على بقية المساحة المتروكة "[٨] !

كل هذه توصيفات جميلة، لكن الكاتب لم يعطِ لقارئه - الذي جاءت هذه المقالات تخاطبه باعتباره محدود الثقافة والمعرفة - تعريفاً ناضجاً للعقل سوى أنه الذي "غاب بوصفه حركة استدلالية من المقدمات إلى النتائج، وغاب بوصفه جهازاً رقابياً على نشاطنا الفكري، فأخلى غيابه الساحة للوهم والخرافة"(٩).

والذي أظنه أن غياب هذا التعريف متساوقاً مع الفلسفة الكانطية التي "تقدم منهجاً نقدياً لأداة المعرفة (العقل)"(١٠)، والتي ينتصر لها الكاتب كثيراً، وكذلك لأن الكاتب يرى "أن الأولوية في النشاط الفكري والبحث العلمي ينبغي أن يكون لعمليات التأصيل - الذي يسأل عن صحة الأشياء وثبوتها - لا لعمليات التأويل - الذي يسأل عن معناها، لأن إثبات وجود الشيء يسبق اثبات معناه"(١١).

أزمة إنسان لا برهان

الإنسان الذي ينتصر له الكاتب/عصام القيسي هو الذي "تراجع مخلفاً وراءه صورة إنسان وروح ضبع مفترس، فالحكومات لا تعرفه، لأنها حكومات عسكرية، والعسكر لا

يعرفون الإنسان، وإنما يعرفون (المواطن)، والمواطن هذا كائن مختصر في بطنه وفرجه، وعبد يسمع ويطيع. والأحزاب لا تعرفه، لأنها مؤسسات انتهازية أو إيديولوجية، وكلاهما لا يعرف الإنسان وإنما يعرف (البوق)، والبوق هذا كائن مختصر في أذنه ولسانه، والمرجعيات الدينية التقليدية لا تعرفه، لأنها تجمعات إفتائية قانونية، والقانون لا يعرف الإنسان، وإنما يعرف (المُكلّف)، والمُكلّف هذا كائن مختصر بين الحلال والحرام، والصحيح والفاسد، والقبيلة لا تعرفه لأنها تجمعات عصبية، والعصبية لا تعرف الإنسان وإنما تعرف (الغرّام) (بتشديد الراء)، والغرّام هذا كائن مختصر في جيبه وعضلاته، فالإنسان في نظر الجميع كائن (وظيفي) إما في خدمة الدولة، وإما في خدمة الدين!"[١٢]، هذا الإنسان الذي ليست مشكلته مع البراهين فهي "متوفرة بكثافة على مختلف قضايا الخلاف في حياتنا لكن الإنسان غير متوفر بكميات كافية لاستيعابها، فأزمة هذه المجتمعات ليست أزمة برهان بل أزمة إنسان"[١٣].

هذا الإنسان الذي يرجو الكاتب أن يكون قارئاً نموذجيا لما يقدمه من أفكار قائلاً : "أتمنى أن يرزقني الله قارئاً نموذجياً

يفهم ما أكتب دون زيادة أو نقصان ..وأن لا يبتليني بقارئ يقوّلني ما لم أقل، وينسب إليّ ما لم يخطر لي على بال"(١٤)! وهو نفسه الإنسان الذي قامت المؤسسة الدينية التقليدية بتوجيه "سلاح التسطيح الشامل" الحريص على صنع "طوابير غفيرة من المفتقرين إلى فتوى الشيخ"(١٥)، بعد أن أضاعت أو لنقل ميّعت هذه المؤسسة يوم الجمعة ووظيفة منبره الذي "هو وسيلة التثقيف والتعليم والتوعية الأولى والأهم في المجتمع الإسلامي"(١٦)، ويلتقي الكاتب هنا مع المفكر الليبي الصادق النيهوم في كتابه "الإسلام في الأسر" حيث يقول هذا الأخير: "المسجد فكرة قديمة عرفتها كل الحضارات لكن الجامع لم يدعُ اليه أحد سوى الإسلام، فالجامع ليس هو المسجد وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل جهاز إداري مسؤول عن تسيير الإدارة جماعيا، ومؤتمر يوم الجمعة هو الذي صنع هذا المواطن القادر على النقد والحساب"(١٧)، فضاع ذلك اليوم الأغر تحت إصرار المؤسسة "الدينية" التي تريد أن تصنع من شيوخها آلهة ـ لا ينتقدون ـ حتى أن الكاتب القيسي يتساءل: "فلماذا يتقبل المسلمون بطيب خاطر آيات النقد والتقويم التي وجهها الله

لنبيه في القرآن الكريم ولا يتقبلون سطورا لهذا الكاتب أو ذاك في نقد شيوخهم؟ لماذا كلما جاء عالم أو مثقف لمراجعة وتقويم مسيرة هؤلاء الشيوخ العقلية طلعت عليه كلاب الليل وذئابه؟!. هل تورط المسلمون في عبادة شيوخهم كما تورط الذين من قبلهم في عبادة الأحبار والرهبان و"اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله؟".

يبدو أن الأمر سائر في هذا الاتجاه إذا لم يكن قد وصل إليه، واتخاذ الأحبار والشيوخ أربابا من دون الله لا يعني عبادتهم شعائريا، وإنما المقصود أنهم جعلوا لهم منزلة في السمع والطاعة، والحصانة من النقد، تكافئ منزلة الرب""[١٨].

البقع السوداء في تراثنا

يقدّم الكاتب عصام القيسي نماذجاً للبقع السوداء وفق ما جاء في تراثنا الفقهي من أحكام حافظ عليها الفقهاء بل ودافعوا عنها بضراوة؛ منها إخراج المرأة المسلمة من الجامع بدعاوى كثيرة جعلت الكاتب يصرخ قائلاً :"من الذي ألغى هذه السنة الجماعية العظيمة، من الذي أخرج المرأة من المسجد الجامع، ولماذا لا نسمع لهذه السنة نصيراً عند

أنصار السنن، الذين ملأوا الدنيا صواتا في الدعوة إلى سنن العادات، من تقصير الثياب إلى إطالة اللحى؟، أم أنها سنة تتعارض مع فحولتهم العاتية؟!"[١٩]، وكذلك موضوع الرق والأسرى بدون دليل "قطعي" في ذلك، بل أن أعمال النبي (ص) تناقض آراء الفقهاء الذين جاءوا بعده، ومن هذه البقع السوداء واحدة" كانت سببا رئيسا في التردي الحضاري لدى المسلمين؛ إنها فتنة تحويل (الأمر) من شورى بين المسلمين إلى ملكية إقطاعية عنصرية على أيدي بني أمية، وجنرالهم العظيم (معاوية بن أبي سفيان) الذي لم يكن له سابقة في عصر الرسول لا في هجرة ولا في فتح، غير أنه تدارك هذا النقص لاحقًا وصنع (سابقة) أدخلتنا متاهة لم نخرج منها حتى الآن! وتلقف هذه السابقة من بعده بنو أمية، ومن بعدهم بنو العباس، ثم بنو أصحاب الحظوظ من كل جنس و لون، حتى يومنا الحاضر"[٢٠]!

لعل قاعدة "سد الذرائع" تعتبر واحدة من قواعد الفقه في "سد الحياة" كما يسميها الكاتب لأن "خطورة هذه القاعدة تكمن في أنها سلاح ذو حدين فإن الفقيه قد يستخدمها بنية سد ذريعة للفساد، لكنه ـ دون أن يدري ـ قد يفتح بها أبواباً

أخرى للفساد غير منظورة"(٢١)، والحقيقة موضوع سد الذريعة قد نوقشت كثيرا ومن أجمل من ناقشها الدكتور محمد سليم العوا ـ وقد أشار الكاتب عصام القيسي لذلك ـ حيث يقول العوا: "الاشتغال بسد الذرائع فقط أسهل.. لذا يشتغل به الكثير منْ لا يريدون أن يتعبوا أنفسهم في النظر في الشق الثاني من القاعدة.. ألا وهو فتح الذرائع"، لأن القاعدة قائمة على مقولة للإمام القرافي بقوله: "اعلم أن الذرائع كما تُسد تُفتح"(٢٢).

ويفرد الكاتب مقالاً خاصاً لمناقشة "حد الردة" بما يتفق مع آراء مفكرين أمثال العوا وعمارة وغيرهم في عدم وجود نصي قطعي في الأمر، حيث يقول د/ محمد عمارة :"إن حد الردة خاص بجريمة الخروج على المجتمع وهدم مقوماته فهو خاص بلون من الحرابة الفكرية لذلك فالمرأة المرتدة لا يقام عليها الحد لأنها غير محاربة"(٢٣).

أفكار أخرى

الأفكار التي يحملها كتاب "عودة العقل" للكاتب عصام القيسي جديرة بالقراءة والاهتمام، وأهمها هي الأفكار

الجديدة على الساحة الفكرية "العتيقة" مثل مناقشته لموضوع أن المسيح عليه السلام ليس روح الله بل روح منه، وأن جبريل عليه السلام هو روح الله، لكن فكرته التي أعجبتني ما جاء في مقاله (القرآن نهاية التاريخ) وهي "أن من حقنا - يعني نحن المسلمين - أن نعلن أن نهاية التاريخ باختتام عصر النبوات بشريعة محمد (ص)"(٢٤)!

وجميلة مناداته لاستخدام سلاح الفن في الدعوة للإسلام، لأن أكثر ما يقنع الإنسان الغربي هما: الفن والإحصاء"(٢٥)، وهو بذلك يلتقي مع مقولة الرئيس البوسني الراحل علي عزت بيجوفيتش "فالفن، إذا استبعدنا منه الغُثاء، مقدس وفوق - عقلي"(٢٦).

لكني لا أتفق مع الكاتب القيسي في مقولته "إن العقل هو صنو القرآن لا حديث النبي ولا أئمة البيت"(٢٧)، لأنه مهما كان العقل ملَكَة عظيمة في التفكير وأداة للمعرفة، فلن نقف بها فقط دون المنقول من تراثنا بعد تمحيصه بهذه الأداة المعرفية، بل وحولناها إلى "مصدر" للمعرفة مناظرة للذكر الحكيم!

وقد يكون عذر الكاتب القيسي في رفض الحديث والأئمة لما شابهما من تدليس الفقهاء خلال العصور المتوالية، لكن هل يعني أن نُعلي العقل إلى هذا القدر "صنو القرآن"؟!

أدعوه للمراجعة ـ تماما كما يدعو هو الأمة لمراجعة عقلها.

إن التوصيفات التي قدمها الكاتب/عصام القيسي في كتابه جميلة وتنفع في مجال التنظير بشكل كبير ورائعة في مجال الرد على "خرافات" القرون الخوالي التي تسربت إلى تراثنا الإسلامي مثل (التاريخ يعظ ولا يحكم) و(النظرية الخامسة هي الحل)- ويقصد الحلول الجذرية وليست الترقيعية، وكذلك (معالم الصلابة الفكرية بقوانينها الثلاثة الأكثر قانونية والأكثر استقامة والأحسن تفسيراً).

كل هذه الأفكار وغيرها تدخل ضمن التنظير الذي هو وظيفته ككاتب، كما صرّح في دعوته في أول الكتاب "وعودة العقل هنا هي دعوة وأمل، أكثر منها واقع وعمل"[٢٨]، لكن التنظير لوحده لا يكفي من المثقف العضوي ـ كما يسميه ـ بل يجب على هذا المثقف أن يقدم مشروع بآليات تطبع على أرض الواقع يستفيد منها المجتمع.

***

الهوامش :

١/ قضايا يمنية ،عبدالله البردوني، ص:٩.

٢/ مقابلة مع الكاتب في صحيفة الجمهورية يوم ١٥/ ١/٢٠١٣م.

٣/ نفسه.

٤/ عودة العقل ، عصام القيسي ، ص: ٦.

٥/ نفسه ، ص: ١١.

٦/ نفسه ، ص: ٥٩.

٧/ نفسه.

٨/ نفسه ، ص: ٥٣.

٩/ نفسه ، ص: ٥.

١٠/ نفسه ، ص:١٧٩.

١١/ نفسه ، ص:١١٧.

١٢/ نفسه ، ص: ٤٦-٤٧.

١٣/ نفسه ، ص:١٥٦.

١٤/ نفسه ، ص: ١٣.

١٥/ نفسه ، ص: ٦٥.

١٦/ نفسه ، ص: ٣٩.

١٧/ الإسلام في الأسر ، الصادق النيهوم ، ص:٣٣، ص:٨٧.

١٨/ عودة العقل ، ص: ١٠.

١٩/ نفسه ، ص: ٢٨.

٢٠/ نفسه ، ص: ٣٠-٣١.

٢١/ نفسه ، ص: ٤٤.

٢٢/ مقابلة للدكتور سليم العوا على موقع الجماعة الإسلامية

http://egyig.net/Public/articles/interview/14/11407061.shtml

٢٣/ التفسير الماركسي للإسلام ، د محمد عمارة، ص: ١١.

٢٤/ عودة العقل ، ص: ٧١.

٢٥/ نفسه ، ص: ٨٥.

٢٦/ الإسلام بين الشرق والغرب ، علي عزت بيجوفيتش ، ص: ١٥٠.

٢٧/ عودة العقل ، ص: ١٩٦.

٢٨/ عودة العقل ، ص: ٥.

***

مهندسو الخيال أم مهندسو العلم؟ *

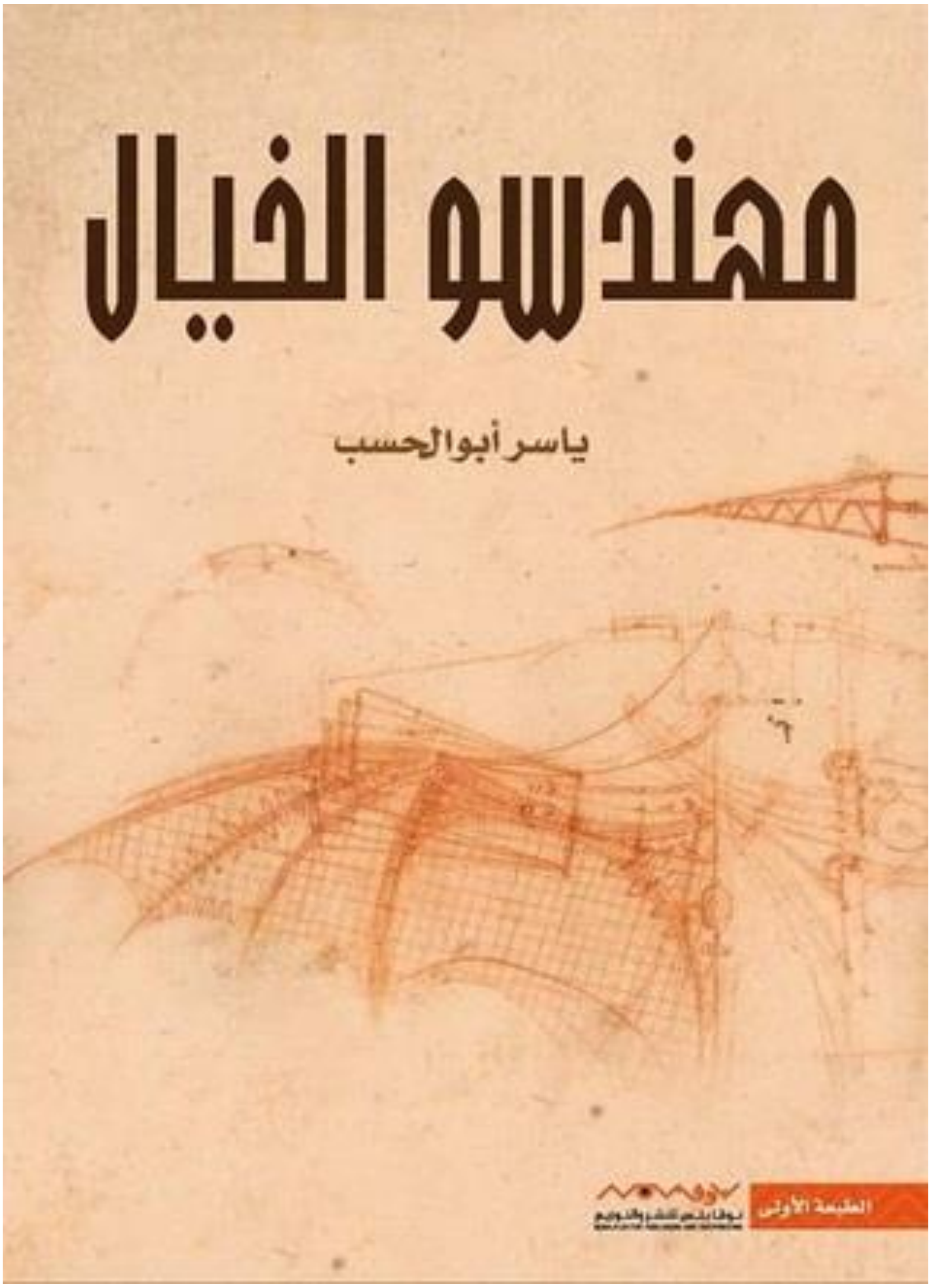

* نشر المقال في موقع كلافو http://clavo.me/ – بتاريخ ٣٠ نوفمبر ٢٠١٦م

كم الفارق بين العلم والخيال؟

-الكتاب: مهندسو الخيال
-المؤلف: ياسر أبو الحسب
-عدد الصفحات: ١٧٦
-الناشر: نوفا بلس للنشر والتوزيع، الكويت
الطبعة: الأولى/نوفمبر ٢٠١٦

الإجابة التقليدية أن الفارق شاسع، ويظل الخيال هو الأكبر اتساعا من العلم الذي يلاحقه.

صحيح، لكن مع التقدم العلمي الرهيب الذي يكتسح حياتنا المعاصرة أظن أن الفارق يتضاءل عاما بعد عام وأصبح العلم يقدّم تكنولوجيا تفوق التخيل نفسه!

لكنه في الوقت نفسه يُعطي للخيال دفعة لولوج آفاق أوسع، فيتطور الخيال البشري ويطمح أكثر مع تقدم العلم.

حول العلم والخيال يصحبنا المهندس ياسر أبو الحسب في كتابه الشيق (مهندسو الخيال) – الذي صدر حديثا – من خلال ١١ فصلا تتحدث عن العلم عبر رواد الخيال العلمي المبدعين؛ فتقرأ في هذا الكتاب أسماء شهيرة أمثال جول فيرن وهربرت جورج ويلز وآثر كلارك وغيرهم.

مؤلف الكتاب يستخدم الخيال العلمي كقناع لعرض العلوم الحديثة على طبق من أدب روايات شهيرة؛ فهو لا يعرض

رواية الخيال العلمي لمجرد الرواية، بل يعرض الأسس العلمية التي استندت عليها.

دعونا نقوم بجولة داخل هذا الكتاب.

ففي مقدمة الكتاب يتحدث عن (خيالهم وخيالنا) – يعني العرب والغرب- من خلال الحديث عن الخيال الإنساني المميز لنا ككائنات عاقلة عن باقي كائنات الكوكب، ثم ينتقل إلى انبعاث العلم الحديث في عصره النهضة بالذات في عصر العالم جاليليو بدايات العلم التجريبي التي يعبّر عنها الكاتب بقوله: "تحرر بعد ذلك نهر العلم من سدوده القوية ومضى يسقى أرض البشرية العطشى".

ثم ينتقل للحديث عن ظهور أدب الخيال العلمي ودوره في التنبؤ بالمستقبل ثم انتقال دوره إلى صناعة المستقبل حرفيا، وحين يلتفت الكاتب إلينا - نحن العرب – ويرصد ركود الخيال العلمي لدينا، فيعرض أسبابه في التخلف العلمي والمعلوماتي الذي عاصرته أمتنا من أواخر العصور الوسطى، وأجواء كبت الحريات والاستبداد والفقر وغيرها من الظروف الاجتماعية والسياسية التي تقتل الخيال الخلّاق وتعلقه على مشانق هموم الحياة الشاقّة.

يحضرني هنا عن الفارق بيننا وبينهم ما كتبه الروائي اليمني مروان الغفوري في روايته (جدائل صعدة): "جول فيرن الروائي الفرنسي شديد الحدس تخيّل في القرن التاسع عشر أبراج باريس السكنية والطائرات وحتى المصاعد. في عام ١٩٠٥ مات فيرن، في العام نفسه مات الإمام محمد عبده، بعد موت فيرن ظهرت الطائرات والمصاعد، ومات الإمام محمد عبده إلى الأبد، لم يعشْ محمد عبده بعد موته كما يفعل فيرن الآن، دلّ الرجلان على الطريق، فعاش أحدهما ودفن الآخر".

فصول مهندسو الخيال

بعد المقدمة تتلاحق فصول الكتاب الأحد عشر؛ ففي الفصل الأول (حياة ما بين النجوم) عرض الكاتب لفيلم "ما بين النجوم Interstellar"، وربطه بالنظرية النسبية لآينشتاين، ومسألة الثقوب السوداء، ثم يعود إلى الفيلم ثانية ليعرض السلبيات العلمية فيه قائلا: "لا يجب أن ننسى أن إنترستيلر فيلم (ورواية لاحقا) خيال علمي، يخضع كغيره لعوامل أخرى غير علمية لغرض الإثارة والحبكة الدرامية، لذلك لابد أن نجد بعض "السقطات العلمية"، كإمكانية الحياة

داخل الثقب الاسود كما فعل "كوبر"، إذ أن الجاذبية داخل الثقب الأسود مريعة"!

ثم يعرّج الكاتب على الجزر الأسطوانية الفكرة التي قدمها جيرارد أونيل في كتاب صدر له عام ١٩٧٦م حول استعمار الفضاء وإمكانية السكن فيه، ليختتم الفصل بقوله: "هل ستكون نجاة البشرية في المستقبل البعيد في خروجها من الأرض؟ هل سنهجر وطننا الأزرق، لنتجه لكوكب آخر نكمل عليه مسيرة الحضارة البشرية؟ مجرد التفكير أنه في يوم ما سينظر أحفادنا أحفادنا للسماء، محاولين تبين شكل كوكب الأرض الذي لا يعرفون عنه شيئا، مجرد التفكير بذلك يصيبني بالدوار"!

في الفصل الثاني (عام ١٠٧٢٠٨ ميلادية!) نلتقي مع ويلز في روايته الشهيرة "آلة الزمن"؛ التي يستخدمها الكاتب كقناع لعرض معضلة الزمن والنظرية النسبية الخاصة وتمدد الزمن، والثقوب الدودية والصعوبات حول السفر عبر الزمن التي منها (مفارقة الجدة) التي تنص "هب أن أحدهم استطاع أن يسافر للماضي ليقتل جده، كيف سيكون موجودا هو نفسه إذا كان والده لم يوجد؟!"

أما في الفصل الثالث (أراض جديدة) فنعود لموضوع مغادرة الأرض؛ حيث ستكون الكواكب الأخرى مسرحا للأحداث من خلال رواية ويلز "حرب العوالم" و"موعد مع راما" لآرثر كلارك واختيار كوكب المريخ كبديل، وكذلك اختيار كوكب الزهرة البديل الآخر.

في الفصل الرابع (مهندس الخيال الأكبر) يأخذنا الكاتب لنتعرّف على الرسام الشهير ليوناردو دافنشي من زوايا جديدة؛ إنها زوايا العلم!

دافنشي يقول: "كل معارفنا كان لها أصل في مخيلاتنا"، وهنا يقدّم الكاتب أفكار وتخيلات دافنشي في الفن والفلسفة والعلوم الموجودة في ١٣٠٠٠٠صفحة كمذكرات ملأها هذا الأخير بالرسوم التوضيحية؛ ومنها تصميم لهليكوبتر وطيارة مجنحة وفارس آلي وغيرها.

في الفصل الخامس (ومرّ الليل) نكون مع رواية جول فيرن الشهيرة "من الأرض للقمر" التي من خلالها ينفذ الكاتب للحديث عن ارتياد الفضاء منذ بدايات القرن العشرين مع "قنسطنطين تسيولكوفسكي" ووسيلة الصاروخ للتنقل عبر الفضاء، حتى كواليس مشروع أبولو وصاروخ ساترون٥

والذهاب إلى القمر في ستينات القرن العشرين، مع التعريج على نظرية المؤامرة، وتمنيّت لو أن الكاتب أورد مراجع للفقرة التي يقول فيها: "ولكن أغلب العلماء والآراء العلمية التي يعتد بها أثبتت بالفعل صعود الولايات المتحدة الأمريكية على سطح القمر في رحلة القرن العشرين".

وينتهي الفصل بمقطع أدبي جميل يقول: "من مليارات السنين، يدور ابن الأرض البارّ، قمرها وقمرنا العزيز، حولها في ثبات وتؤدة، مقصِّرا أيامها يوما بعد يوم بسبب جاذبيته. كان الابن، على طول تاريخ البشرية، من أكثر الأجرام السماوية التي جذبت مخيلة البشر بحكم حجمه الكبير بالنسبة للأجرام الأخرى، ولنوره الفضي الصافي الذي تغزل به العشاق والمحبون في أحبتهم وعشاقهم. الآن صار القمر أقرب إلينا مما نتخيل، فزرناه، وحتما سنكرر الزيارة".

في الفصل السادس (أوهام فضائية) نعود رواية "حرب العوالم" مرة ثانية لويلز ومحاولات النفاذ للفضاء التي هي أوهام فضائية أم أفكار فضائية؟

ثم يعرّج الكاتب على التلسكوبات والنظر للمريخ وفكرة برسيفيل لويل وقنوات المريخ المائية، والإشارات القديمة للأطباق لطائرة والتشكيك بها، ليختم الفصل بالحديث عن خطأ آينشتاين في نفي تمدد الكون كما بينت نظريته النسبية العامة.

لينهي الكاتب الفصل بقوله: "إن الخطأ، هو شعلة التقدم وإن بدا عكس ذلك. هو الجندي المجهول الذي يقف خلف أعظم النظريات العلمية من خلال تصويبات لاحقة.. فلولا الخطأ ما كان الصواب. ومن لم يُخطئ لم يصب".

في الفصل السابع (مِنْ هناك) يبدأ بعرض رواية مايكل كرايتون "سلالة أندروميدا" لتكون قناع الكاتب للحديث عن فكرة انتقال الحياة من مكان لآخر في الكون، ويعرض لنظرية الرسول والاتصال باستخدام كائنات عضوية التي يعلق عليها الكاتب مازحا: "لذا لو سقط فوق منزلكم أي من تلك الأحياء، فاعلم أن هناك رسالة محمولة في أحشائه من حبيب في مجرة "أندروميدا" إلى محبوبته القاطنة في ضواحي مجرة "درب التبانة"، احرص على توصيلها لها"!

ومن ثم الحديث عن البذور الكونية واحتمالية وصول هذه الأحياء إلى الأرض في الظروف الفضائية الصعبة.

لكنه يتساءل: ماذا عنا نحن؟ هل كان أصل الحياة البشرية خارجي وانتقل يوما للأرض بطريقة ما؟

في الفصل الثامن (أعطني حريتي) نلتقي مع كاتب الخيال العلمي إسحق أزيموف في روايته "رجل المائتني عام" – التي حولت لفيلم - وتتحدث عن حرية الروبوت، ليحدثنا الكاتب عن فكرة الذكاء الاصطناعي وتطوره من ديكارت حتى لايبنتز، ويعرض لقوانين أسيموف الثلاثة عن الروبوت، ومن ثمّ ما قدمه العالمان روجر بنروز وكورت جودل عن القضايا التي تمنع الآلة أن تصل لذكاء البشر، وكذلك مشكلة الوعي البشري وآراء هكسلي وهوكينج، وأيضا التأثير السلبي على الذكاء البشري الذي تقدمه الآلات.

ولأول مرة يستشهد الكاتب بروائي عربي في هذا المضمار؛ إنه صبري موسى في رواية "السيد في حقل السبانخ"!

ويختم الفصل بالتحذير الذي قدّمه العلماء من تفوق الآلة في الذكاء على الذكاء البشري بقولهم: "الوصول لذكاء

اصطناعي مماثل لذكاء الإنسان ربما يكون الحدث الأهم في تاريخ البشر، وربما يكون الأخير كذلك ".

في الفصل التاسع (الغرق في الخيال) نعود لجول فيرن وروايته "عشرون ألف فرسخ تحت الماء"، ليحدثنا الكاتب عن تاريخ بدايات الغواصات، ويعرض للرواية باختصار، ثم يعود ليشرح كيف تعمل الغواصات الحديقة.

في الفصل العاشر (ولم يرَ الرجل قدمه!) يبدأ الفصل بسؤال ابن الهيثم كيف نرى؟

ثم تأتي رائعة ويلز رواية "الرجل الخفي"، فيتخذها الكاتب قناعا للحديث عن محاولات البشر لتحقيق فكرة التخفي، ولم ينسَ الكاتب أن يورد تعليق الكاتب الروسي المشهور ياكوف يبرلمان على قصة ويلز من وجهة النظر العلمية؛ فإن هذا الرجل "جريفين" سيكون أعمى!

ثم يتطرق الكاتب لحلول علمية ومحاولات حديثة لمحاكات فكرة التخفي لدى ويلز.

ليختتم الكاتب الفصل بقوله: "لقد قرر الإنسان منذ زمن أن المستحيل أصبح غريبا على قاموسه، ووضع في عقلة أنه لابد أن يأتي اليوم الذي يمسك فيه بلجام الكون ويسوقه كيف

يشاء! هذا إن ظل الكون مسالما ولم يفض به الكيل منا ومن فضولنا اللامتناهي"!

في الفصل الحادي عشر والأخير (ساحر الفضاء) نلتقي مع واحد من عمالقة كتّاب الخيال العلمي إنه آثر كلارك الذي يعرض الكاتب سيرته، ثم يقدّم تنبوءات آثر كلارك الكثيرة – بالذات ما تحقق منها- كالأقمار الصناعية للاتصالات والإنترنت والكمبيوتر الشخصي والآي باد وغيرها.

لمحة عامة

كتاب ممتع، وليس كتاب خيال فقط، بل علم وخيال – وهو للعلم نفس عنوان مجلة إلكترونية مميزة يحررها الكاتب نفسه!

لكني تمنيت لو أن الكاتب عرض لسِيَر كتّاب الخيال العلمي المذكورين في الكتاب (ويلز وجول فيرن ومايكل كرايتون وغيرهم) كما عرض لآرثر كلارك في الفصل الأخير.

كذلك، فقد ذكر الكاتب في نفس الفصل عن آرثر كلارك: "ويعد هو وإسحاق عظيموف وروبرت هاينلاين أشهر ثلاثة كتاب في الخيال العلمي في القرن العشرين".

فأين روبرت هاينلاين، لم نجد له ذكر في الكتاب؟

النظرية النسبية لآينشتاين عرضت تكرارا في الكتاب وهذا جيد في ربطها بما يناسبها من خيال علمي ارتكز عليها، لكن ألا يوجد لنظرية ميكانيكا الكم خيال علمي يرتكز عليها، لأني لم أجد لها ذكر في الكتاب؟

أظن أن عنوان الكتاب جاء من الفصل الرابع مهندس الخيال الأكبر عن ليوناردو دافنشي.

كل هذه الانتقادات – إن صح التعبير – لا تقلل من روعة الكتاب الذي جاء مميزا، لأنّ عرْض الأفكار العلمية عن طريق قناع الخيال العلمي يعتبر عمل إبداعي يخفف من جفاف المادة العلمية، ويجعلها ممتعة للمتلقي بعيدا عن المعادلات الجامدة والشروح الرتيبة.

والذي زاد من متعة الكتاب هو الأسلوب الأدبي الذي صاغ به الكاتب كتابه؛ وتشهد بذلك العبارات القصيرة التي افتتح بها الكاتب كل فصل من فصول الكتاب، وكذلك العبارات التي أوردناها في هذا العرض نهاية بعض الفصول.

***

المثقفون...جدلية النخبة والفشل*

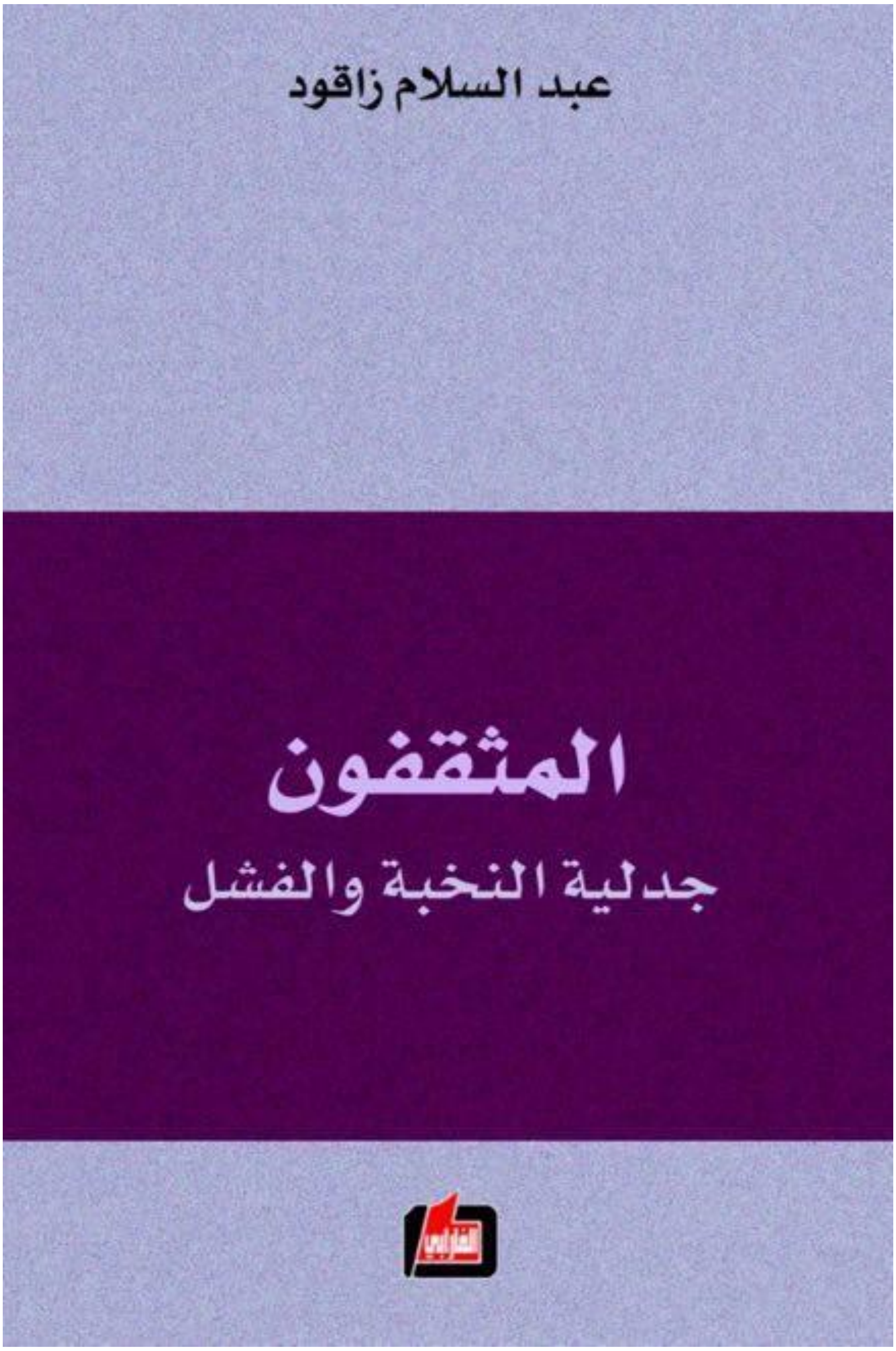

* نشر المقال في موقع الرأي– الأردني – بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠١٦م

بلغة عالية رصينة يناقش المفكر الليبي د عبدالسلام زاقود في هذا الكتاب موضوعا طالما طُرح مرارا وتكرار، إنه موضوع المثقف!

-الكتاب: المثقفون
جدلية النخبة والفشل
-المؤلف: عبد السلام زاقود
-عدد الصفحات: ٣٦٣
-الناشر: دار الفارابي، بيروت
الطبعة: الأولى/ ٢٠١٦

والمؤلف يدرك هذا الأمر؛ فقد جاء في مقدمة الكتاب: "موضوع كلاسيكي، يبدو أو يتراءى للوهلة الأولى أنه قد قتل بحثا"، لكن المؤلف يستدرك مع ذلك بقوله: "يمكن تبرير البحث في موضوع المثقف، من خلال التوكيد أن ما رأيته من مؤلفات في المكتبة (العربية بصورة خاصة) يغلب على معظمها طابع الرتابة على مستوى التناول، وتناقض التحليل في بعضها الآخر، وتجاوز الزمن الذي ظهرت فيه تلكم الكتابات".

لذا شمّر المؤلف عن مئزر الجد، وخاض غمار التجربة في الكتابة عن قضية المثقف، لكن من أي زاوية؟

لعل المدخل يخبرنا!

يقدّم المؤلف مدخلا قصيرا – أطلق عليه مدخل ضروري- يقوم بقراءة في الحالة الثقافية العربية الراهنة؛ يضبط فيه أولا مصطلح الثقافة، تلك المفردة من "المفردات الحمالة للعديد من المعاني والدلالات"، التي يعرفها المؤلف "أن الثقافة كل ما يعتقده الإنسان، ويفكر فيه، ويشعر به، ويتصرف على ضوئه، وهي الصورة الكلية للنمط الحياتي لمجموعة من الأفراد".

ثم يقدم المؤلف أهمية الثقافة التي صارت بمثابة ترمومتر قياس تقدم الشعوب والمجتمعات والدول بل حتى الأمم والحضارات وقياس درجة مدنيتها ورفعتها.

ويصل المؤلف إلى تشخيص حالة الثقافة في المنظومة العربية والإسلامية، التي أنقسم مثقفوها إلى فريقين ظاهرين؛ الأول لجأ للتراث، والآخر أنغمس في الحداثة بل الحداثة المفرطة.

ثم أورد المؤلف ملامح أو مؤشرات على الحالة المزرية التي تعيشها الثقافة العربية الإسلامية أبرزها:

الانغلاق، والتبعية، والافتقار إلى الحوار، والاستبدادية، والمُسبقات (تحصين الأفكار وإضفاء العصمة على العديد من تلكم الأفكار ما جعلها مسلمات دهية)، ليخلص المؤلف بنتيجة "أن ثقافتنا ثقافة مغشوشة، وأن غاية ما بلغناه في هذا المضمار لا تتخطى عتبة العشوائية الثقافية"، وهذه الثقافة المغشوشة في صورتها الآنية، أوجدت نمطا تفكيريا واحدا لدى جل المثقفين، بل والعامة.

لكن ما خطورة ذلك؟

يقول المؤلف: "إن حرب هذا الزمن – شأنها شأن الحرب في أي زمن – هي حرب ثقافية من الطراز الأول، وما ينشأ من عراكات بين الفينة والفينة، ما هي إلا معارك هامشية ستؤول نتائجها إلى المنتصر في الحرب الحقيقية، الذي يمتلك عتادا ثقافيا رصينا".

هيكلية الكتاب

يعرض المؤلف بعد ذلك هيكلية الكتاب في قسم منفصل!

ولا أدري لماذا لم يعرض ذلك في مقدمة الكتاب؟!

أهم ما في هذا القسم أنه صرّح بهدف هذا الكتاب، أنه "يتمثل في دراسة العلاقة (غير المنضبطة) بين المثقف والسلطة، كمحاولة في فك شيفرة التداخل ورسم مسارات الفرز على هيئة وضع محددات علمية منطقية تُراعى فيها النتائج الأولية للحالة الثقافية الراهنة".

جاء الفصل الأول (في ضبط مصطلحي المثقف والسلطة) حيث ناقش مصطلح المثقف من ناحية بزوغه التاريخي وعوامل صعوبة وجود تعريف دقيق لدى المفكرين العرب لمصطلح المثقف ومنها : النقل الحرفي للمصطلح الغربي، والتنظير للعديد من خصائص محددة للمثقف، وسياسة الفكر العربي، ونظرة التعالي التي صبغت المثقفين.

ثم يقوم المؤلف بمناقشة وتفنيد التعاريف التي أوردها المفكرون العرب للمثقف أمثال محمد عابد الجابري ومحمد أركون وإدوارد سعيد وزكي نجيب محمود وعبدالاله بلقزيز وبرهان غليون وغيرهم، ليقدم المؤلف تعريفه الخاص للمثقف أنه "هو الشخص الذي يحمل قدرا معرفيا يتجاوز حدود تخصصه، يؤهله لإنتاج المعرفة فينتجها، ويحسن

توظيفها ليبلغ بذلك مرتبة يصبح معها قادرا على التعاطي دون انحياز مسبق، وتتوقف صلته بالأفكار على مدى صمودها أمام النقد".

ثم يُعرّج على الطرف الآخر من المشكلة وهي السلطة، ليقدم أربع أنواع من السُلَط (جمع سُلطة)؛ وهي السلطة السياسية (أكثر أنواع السلط اتساعا) مع معايير تحدد تأثيرها في المجتمع، وهذه المعايير هي المشروعية، والهوية، والمشاركة.

والسلطة الثانية هي سلطة الأيديولوجيا، ثم سلطة المؤسسة الدينية الرسمية (ذات الصلة المتينة والكبيرة بالمثقف في مجتمعاتنا العربية الإسلامية وتكاد تكون موازية للسلطة السياسية)، وأخيرا السلطة القبلية ويورد المؤلف تفريقا منهجيا بين القبيلة بالمعنى الاجتماعي (تنظيم عصبوي قائم على صلة الدم والمصاهرة) في حين القبيلة بالمعنى الثقافي (تصرف القبيلة في ضوء قيم وثقافة قبلية).

في الفصل الثاني (إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة) يستعرض المؤلف فيه العلاقات بين المثقف في العالم العربي

والسُلَط التي مر ذكرها، ليقدم نتيجة مسبقة في مقدمة الفصل أنها علاقة متسمة بعدم التكافؤ، إذ لم تكن ندية أو في إطار التقارب، كانت الغلبة فيها للسُلَط، وكذلك إن عدم وجود محددات واضحة للعلاقة بين المثقف والسُلَط ذابت شخصية المثقف.

فكانت علاقة المثقف بالسلطة السياسية فاترة وغير واضحة الملامح، مما دفع المثقفين أن يكونوا موالين للسلطة أو مهاجرين عنها!

أما علاقة المثقف بسلطة الايديولوجيا؛ فقد استقصى المؤلف أيديولوجيات معروفة في وسطنا العربي، ليُظهر المغالطة المنهجية التي وقع فيها (أو راح ضحيتها) الغالبية العظمى من المثقفين العرب، والممثلة في وقوعهم تحت تأثير الأدلجة، وانسياقهم في الدفاع المستميت عن إيديولوجياتهم دون مراعاة ما يترتب على ذلك من بتر للكلام، وانتشاله من بيئته، ومحاولة تبيئته في سياق يختلف عن السياق الذي نشأ فيه.

أما علاقة المثقف بسلطة المؤسسة الدينية الرسمية، فالمؤلف يفرّق بين المثقف الديني الممثل لسلطة المؤسسة الدينية الرسمية، والمثقف المناهض لها؛ فالأول يعمل على أدلجة الدين تؤدي به إلى صوغه، وتطويعه بما يخدم السلطة الحاكمة، فيعمل على تزييف الوعي، في حين أن المثقف الآخر يفسر النص الديني تفسيرا مناقضا لتفسير سابقه، ويرى في الدين أداة طيعة لإعلان الثورة والتمرد، فهو في علاقة عداء مستحكم وقطيعة صارخة مع السلطة الدينية الرسمية والسياسية معا!

ويضيف المؤلف بقوله: "إن المثقف الديني بصورة عامة لا يؤمن بنظرية حُكمية غير الخلافة، وينظر (وينظّر) لها باعتبارها مقاما دينيا، لا شأنا دنيويا".

أما علاقة المثقف بسلطة القبيلة، فشبيه بالمثقف المسكون بأيديولوجية دينية، سيظل مقيدا بنرجسية الأسلاف ومدينا لهم بما وصل إليه، ومشلولا عاجزا عن الابتكار والإبداع!

وبناء الدولة لا يتم في ظل وجود دور سياسي للقبيلة أو هناك مثقف قبلي.

في الفصل الثالث (في أوهام المثقفين) يستعرض المؤلف فيه خمسة عشرا وهما من أوهام المثقفين، والعبارة تذكرنا بأوهام الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون التي سماها الأصنام IDOLS، لكن المؤلف أراد أن يقدم نماذج للأوهام أو الأمراض التي يقع فيه المثقفون، وهي:

هوس المؤهلات، والانهزامية (عقدة النقص)، والتيه والحيرة، والنرجسية، والانتهازية، والدوغمائية، والشخصنة، والديماغوجيا، والتبرير، واستبداد المثقفين، والإقصاء، والانتقائية (ازدواج المعايير)، وفوبيا المؤامرة، والنوستالجيا، والمظلومية (أو الاستعطاف).

هذه الأوهام التي يقول عنها المؤلف: "وهي أوهام لم ولن يسعنا حصرها، فكان التنبيه إليها، والاكتفاء بأكثرها شيوعا وتأثيرا خيارنا".

ويكاد يكون كل وهم هو نوع من المثقفين أو صنف منهم؛ فلدينا المثقف المهووس بالمؤهلات والمثقف الانتهازي والمثقف الإقصائي...الخ.

وأضيف أنا هنا المثقف الأكاديمي النصوصي أو المهني؛ وهو نوع من المثقفين محصور بين بُعدين، بُعد مكاني وهو الجامعة أو مكان المحاضرة لا يغادره، والبُعد الآخر المادة العلمية التي يدرّسها طيلة عدة سنوات ولا يطورها ولا يحملها إلى المجتمع خارج سوار الجامعة.

وكذلك المثقف الماورائي؛ وهو مثقف غارق في موضوعات الميتافيزيقيا ينظّر ويجادل فيها دون أثر لهذا الجدال على واقع المجتمع.

والمثقف "العاجي"؛ وهو مثقف ممتلئ بالمعلومات، لكنه في برجه العاجي بعيداً عن مجتمعه وهمومه.

ويضيف الكاتب اليمني/ محمد اللطيفي نوعاً جديداً من المثقفين هو المثقف "النكائي" الذي يعرفه بأنه "المثقف الذي تحرك مواقفه الأحقاد وليس بالضرورة المال...." ويكون هذا النوع من المثقفين "شخصاً مصاباً بأمراض نفسية لا علاج لها مثل الحقد، فيصبح الحقد مصدراً لتقييم الناس، فنكون أمام حقد أيديولوجي يصنف الناس معرفياً على أساس صراعات الماضي وليس متطلبات الحاضر،

ويحتكر هذا المثقف الحقود، المدنية، ليوزعها على من يريد حسب حالته المزاجية، والأخطر عندما يتسنم مثل هذا المثقف مناصب سياسية وحزبية ومدنية".

والمؤلف د عبدالسلام زاقود قد ذكر مثل هذه الأصناف بشكل ضمني داخل عرضه لأوهام المثقفين.

في الفصل الرابع (المثقفون والانتفاضات العربية) يستعرض المؤلف فيه تعاطي المثقفين مع أبرز حدث عربي معاصر وهو ثورات الربيع العربي، وقد قام المؤلف بتحليل أحداث ما سُمي بالربيع العربي على طريقة السوسيولوجي، بالذات حول المفهوم هل ما حدث هو ثورة أم انتفاضة أم انقلاب؟

فيخلص أن ما حدث هو للانتفاضة أقرب من تسميته بالثورة، وذلك لأن أي ثورة غير مسبوقة بجهد تنويري مضنٍ، لا يمكن اعتبارها ثورة، إذا يمكن أن تكون انتفاضة.

أما لماذا حدث ما حدث، فيقدّم المؤلف أربع سيناريوهات لآلية حدوث الانتفاضات العربية وهي:

١-الانتفاضات العربية شأن عربي صرف، والآثار المترتبة عليها تصب في المصلحة العربية.

٢-الانتفاضات العربية مؤامرة دولية من قبل القوى الكبرى، وهي المستفيد الحصري من كل ما يجري في العالم العربي.

٣-الانتفاضات العربية مؤامرة دولية في بدايتها، غير أن الدول العربية قطفت ثمارها.

٤-الانتفاضات العربية نتيجة منطقية للراهن العربي (أو الحالة المجتمعية العربية)، اختطفت من قبل القوى المتربصة (المنافسة).

وهو السيناريو الذي يؤمن به المؤلف إلى حد بعيد، وينقل عن هاشم صالح: "بمؤامرة أو من دون مؤامرة، كان الوضع ينتظر شرارة فقط لكي ينفجر".

وبذلك يلتقي المؤلف مع المفكر عبدالاله بلقزيز في كتابه "ثورات وخيبات"؛ حيث عنون هذا الأخير أحد مقالاته "الثورات العربية من صنع محلي" مستعرضا حججه في ذلك، ومفنداً في الوقت ذاته الكثير من الشبهات حول الشباب والثورات العربية التي قيل أنها صناعة أجنبية.

أما خطاب المثقفين أثناء هذه الأحداث، فالمؤلف يرى أن هذا الخطاب قد انحرف عن المنهج السوي (للسلطة والمعارضة) ولم يعلِ من شأن التوافق والرؤية التصالحية والتذكير بالقواسم المشتركة، فبدا خطابا أنانيا ضيقا، تعميميا.

ويرى أن غالبية المثقفين العرب تكاتفوا وتسابقوا في اللحاق بسيل الانتفاضات الجاري دون تريث البتة، ودون حسبان لعواقب ما تؤول إليه تلك الانتفاضات.

ويختم المؤلف الفصل بقوله: "التقدم الاجتماعي، وبالضرورة التربية الاجتماعية، لا يأتيان كنتيجة للهبات الثورية للشعوب أو تتويجا للفعل الثوري- الذي لا ننكر أهميته-، بل هما نتيجة لتراكم وعي سياسي واجتماعي منظم، وهذا النمط من الوعي يستلزم ابتداء أن ينهض المثقفون بالدفاع عن قضيتهم على أكمل وجه".

وقد يتساءل القارئ ماهي قضية المثقفين الواجب الدفاع عنها؟

هذا هو موضوع الفصل الخامس.

في الفصل الخامس (في قضية المثقف) يبدأ المؤلف فيه بعرض دور المثقفين، وأنهم القادة الحقيقيون لمسارات الشعوب، وهم أبرز مساهم في عمليات صنع التاريخ وتدوينه، ليذهب إلى قاعدة تبدو واضحة في مسار التاريخ الإنساني، وهي أن عصور النهضة هي عصور الثراء في المثقفين، وأما عصور النكبات فهي التي تذهب المثقفين إلى السجون أو المشانق أو المنافي.

ويركز المؤلف التأكيد على أن المثقف المتجرّد عن أوساط شعبه أو المنعزل عنهم، وإن أصبح معلما لجميع مثقفي العالم، فإن مجتمعه سيبقى على الانحطاط الدائم نفسه، وإن مهمته تكمن أساسا في تمثيل المعاناة الجماعية لأبناء شعبه، والشهادة الموثوقة بها لكل ما كابدوه، وإعادة توكيد صمودهم ووجودهم برغم كل شيء، وتنقية ذاكرتهم الجمعية، وهو ما يستلزم بالضرورة إضفاء المثقف على أزمة مجتمعه طابعا عالميا إنسانيا من حيث المعاناة، ومن حيث الإيجابية أيضا فينسب ما يقدمه مجتمعه إلى الحضارة الإنسانية.

ويلخّص المؤلف قضية المثقف – جوهر هذا الفصل – في قوله: "إن قضية المثقف تقوم أساسا على إصلاح المجتمع"، وهنا يلوم المؤلف المثقفين العرب لأنهم حصروا هذا الدور في الجانب التغييري بشقه السياسي، وذهب يناقش ويفنّد آراء بعض المفكرين العرب حول قضية المثقف والتغيير أمثال الجابري وسلامة وموسى وسليم الحص وإدوارد سعيد وعبدالاله بلقزيز وغيرهم، مستخلصا أن المثقف العربي لم يُحسن تكييف ما ينبغي له القيام به، كما لم يُحسن تشخيص ما يعوز مجتمعه وما يعانيه هذا الأخير من أمراض ومعضلات اجتماعية، فجاء ما كُتب عن هذا المثقف لا يختلف عن واقعه، جاء تنظيرا من نخب، إما موظفة عند السلطان، وإما تعيش بعيدة من "وعن" الناس، لا تعرف عن الواقع المجتمعي، والقمع، سوى ما تراه من خلف النوافذ المغلقة، لذا في ظل هذه المعضلة ينادي المؤلف بالبحث عن نمط جديد من المثقفين، يكون فاعلا، بصورة تتجاوز الفعالية شبه المعدومة بالنسبة للمثقفين الكلاسيكيين، ليعالج ما وقعوا فيه من قصور، ويصوّب ما

اقترفوا من أخطاء، ويبني على ما قدموه، وكان مما يصلح أساسا للبناء.

وهذا هو موضوع الفصل الأخير من الكتاب.

في الفصل السادس (في المثقف الفاعل) يبدأ المؤلف فيه برأي حول الانتفاضات العربية الأخيرة، التي أعادت المجتمعات العربية إلى الحالة الطبيعية، وهي تقدم الفعل الاجتماعي على البنية الاجتماعية، فغذا فعل الشعب متجاوزا تنظيرات المثقفين، وأوهامهم، لأن هذه الانتفاضات العربية – كما يقول المؤلف في خاتمة الكتاب-: "مثلت شهادة وفاة النخب والانتلجنسيا العربية التقليدية، إذ أبانت تلكم الانتفاضات عن قصور نظر المثقفين، وبرهنت عن كونهم خارج صلب الواقع الاجتماعي".

ثم أورد المؤلف سؤال: متى يظهر المثقفون الحقيقيون المنقذون؟

يستشهد المؤلف بالتاريخ الانساني لتأكيد أن مراحل العبور والانتقال من مرحلة تاريخية لأخرى ستظل ميدانا خصيبا لميلاد المثقفين، وهذه المرحلة من عمر مجتمعاتنا العربية

ستكون شاهد إثبات على ميلاد مثقفين كبار، غير أن ذلك مشروط بظهور المثقف الفاعل، المتغلب على هواه، المنتصر للمعطيات الموضوعية، المثقف الفاعل صاحب القضية، لا الوظيفة، ولا الرسالة، وهي قضية إصلاح المجتمع من جميع جوانبه، لكن هذا يستدعي تحطيم ثلاثة أوهام يقع فيها المثقف، أو يُوقعه فيه المجتمع، أو تقحمه فيها السلطة إقحاما؛ وهذه الأوهام هي:

١- اعتبار المثقف نفسه قائدا للتغيير والقائم به، إنما عمله هو إضرام الوعي في ركام مجتمع جامد لتقبّل التغيير.
٢- التوقف عن اعتبار المثقف بيده العصا السحرية أو مقاليد الأمور، فما هو إلا فرد يؤمن بترسانة أفكار.
٣- أن يتخطى الثنائية المنوية مع السلطة أو ضد السلطة.

ثم يورد المؤلف خطوات للعثور على هذا المثقف الفاعل؛ فأولها بناء الذات بمعرفة المعطيات الموضوعية التي تعمل ذاته فيها، دون نرجسية مضخمة ولا نكران، وهو مثقف غير معادي للدين، ولا متهادن للسلطة الدينية، بل مكتشف للدور الاجتماعي الذي يلعبه الدين الإسلامي في هذا الزمن.

وقد استوقفني ما أورده المؤلف من تعريف مهم للمثقف الفاعل؛ "أنه الوحيد القادر على إقناع الناس أن الحياة في سبيل الله أعظم من الموت في سبيله"، وهذه لفتة مهمة في هذا الزمان الذي طغى اسم الجهاد والاستشهاد على الخطاب الديني.

إن هدف المثقف، وغايته، هو تقديم صورة أفضل لما ينبغي عليه أن يكون الواقع الإنساني، والتقديم هنا بمعنى العمل، وليس التنظير فقط، أو العرض.

ويورد المؤلف فروقا بين المثقف ذي الرؤية الثقافية، والسياسي الذي تحركه التجاذبات السياسية؛ من حيث التشخيص المجتمعي، وتوجيه النقد، والموالاة والمعارضة، والتغفيل والتوعية، ونوعية الخطاب، ولغته، وغيرها من الفروق التي يرى المؤلف أن هذا التفريق تقتضيه المرحلة الراهنة، بل إن إهماله كان ولايزال سببا من أسباب تدهور الحالة المجتمعية، وتأخر المجتمعات العربية، عندما تصدّر المشهد نفر من السياسيين، الذين لا يحتكمون إلى المعطيات

الموضوعية، قدر احتكامهم إلى الانتماءات والانحيازات المُسبقة.

ليختم الفصل بسؤال : من أين يبدأ المثقف؟

يعوّل المؤلف على السيناريو المتفائل، فالمثقف الفاعل يعيش عاملا متفائلا؛ فهو إنسان حاضره ومستقبله، أكثر من كونه إنسان ماضيه، ومجتمعاتنا تحتاج إلى من يزرع بذرة الأمل، ويخبرها بأن اليوم أفضل من الأمس، ولعل غدا أفضل من كليهما.

في الخاتمة يقدم المؤلف توضيحا؛ أنه في هذه الدراسة حاول مراجعة وتمحيص جدلية النخب والفشل، مستفيدا، ومسترشدا، ومستثمرا، حدث الانتفاضات العربية كسبب رئيس لإعادة طرح سؤال المثقف، مع أسباب أخرى تقتضي إعادة السؤال بين الفينة والأخرى، منها الحالة الثقافية والمجتمعية والحضارية.

وفي كلمة أخيرة يقول المؤلف: "هذه المرحلة تقتضي منظومة تنظيرية جديدة، شرطها أن يسبق التنظير الممارسة، وأن تكون الممارسة على هدى التنظير، وتابعة

له، وأي مثقف بحاجة ملحة إلى المساندة، ما يعني تحرك جموع المثقفين للمشاركة الفعلية العلنية، وأن يتخلى مثقفونا عن الرهبة والتخوّف الوهمي من مواجهة الجهل، والتخلف، والاستبداد .... فهي أمور طارئة، وإن بدا أنها قد رانت على مجتمعاتنا".

كتاب نخبوي بامتياز، موجه للنخبة؛ لأنه عنهم ولهم، يشهد بذلك مقولة المؤلف في مقدمته "هدفي من هذا الكتاب لا يجنح إطلاقا إلى الحط من قدر المثقفين، بل هو محاولة صادقة لإيقاد جذوة الحرص في أفهامهم".

لذا خاطب القوم بلغتهم النخبوية- إن صح التعبير-، محللا ومتسلسلا من فصل لآخر، بلغة عالية الصوت، فخمة الألفاظ، مستندا على أدوته المعرفية والأكاديمية، للغوص في عالم المثقفين الكبير.

***

عندما نلعب مع الكون![*]

[*] نشر المقال في موقع كلافو http://clavo.me/ – بتاريخ ٢٤ أبريل ٢٠١٧م

:-هل يمكن أن نلعب مع الكون؟

:- نلعب مع منْ؟ مع الكون!

:- نعم.

:- وأية لعبة ستكون؟

:- إنها لعبة كريات زجاجية!

:- كريات زجاجية!!!

-الكتاب: لعب مع الكون
-المؤلف: د.أحمد سمير سعد
-عدد الصفحات: ١٨٠
-الناشر: دار روافد للنشر والتوزيع
-الطبعة: الأولى – يناير ٢٠١٧م

أعرف أنك قد تستغرب من هذا الكلام، لكن لا تستغرب، أرجو أن تدخر الاستغراب حتى تقرأ كتابا جديدا يدور حول هذه الألعاب.

إنه كتاب (لعبٌ مع الكون) الذي سيأخذنا إلى عوالم الفيزياء والبيولوجيا والفلسفة والوعي والحاسوب، في تنويعة جميلة نظمتها أنامل وإبداعات مؤلفه الدكتور/ أحمد سمير سعد - الحاصل على دكتوراه في التخدير والرعاية المركزة وعلاج الألم في عام ٢٠١٦م، والمدرس بقسم التخدير بمستشفى قصر العيني- كلية الطب - جامعة القاهرة.

يقول عن مقالات كتابه: "هي كتابة على تخوم الكتابة، ليست بالفلسفة أو العلوم أو الخواطر، ولكنها تساؤل نشط وإجابات حذرة، وحيرة ما بعدها حيرة، ومحاولات للإيغال بحذر".

والآن تعال معي في جولة في أروقة هذا الكتاب.

مع فصول الكتاب

الفصل الأول (العلم سحرٌ خالص):

ينطلق الكاتب من رواية نجيب محفوظ المثيرة للجدل "أولاد حارتنا"، لكنه لم يقف عند الخلاف الذي أثارته تلك الرواية، بل تعدى ذلك إلى دلالة شخصية (عرفة) الساحر الذي في خضم سعيه للمعرفة والإصلاح يقتل في رعونة الغيبي والخفي (جبلاوي)، ليدرك وبعد فوات الأوان كارثة ما فعل، هذا (عرفة) سيكون المفتاح الذي يلج منه وبه الكاتب للحديث عن الدين والسحر والعلم، وأن دين العلم التجريب في حين دين الدين اليقين، ذلك التجريب الذي يمحص ما نشاهده من ظواهر؛ فنحن لا نعلم من الأشياء إلا خواصها

أما حقيقة ما وراها لا نعلمه، وضرب الكاتب مثالا لذلك ظاهرة الجاذبية وكيف تغيرت تفسيراتها حسب نظرية نيوتن ثم نظرية آينشتاين وبعدها نظرية الكم، فالعلم هو السحر الوحيد الذي استطاع أن يخلق بساطا سحريا، لكنه أبدا لن يدرك جوهر الحقيقة.

الفصل الثاني (العلم مؤمنٌ وملحدٌ ولا أدري):

يدور حول إيمان العلماء الشخصي، وذلك في تفتيشهم للإجابة عن الأسئلة الكبرى حول حقيقة الأشياء، ومن يقف خلف العالم وغيرها، تلك الأسئلة التي تخلت الفلسفة عنها لصالح العلم، لكنه – أي العلم – سقط في بئر الميتافيزيقيا، وهو يقف أمام معضلة القوانين والكون والرب؛ يقول الكاتب: "متى كان الكون مكتفيا بقوانينه تخلينا عن فكرة الرب لصالح القوانين التي تحفظ كل شيء بلا حاجة لرب، أو ربما قلنا برب قادر يقف خلف القوانين، ولأنه كلي القدرة فقد خلق كل شيء مرة واحدة ولم يحتج ليتدخل أبدا، ومتى قلنا بقوانين لا تكفي لحفظ الكون اتهمنا الرب بالعجز، أو قلنا بالمعجزة لتخرق القانون لتدل عليه والنقص الذي يحيط بعلمنا".

وهنا يعرض الكاتب للنظرية النسبية لآينشتاين ونظرية الكم وخلافهما حول تفسير الجاذبية، ومن ثم يعرض لنماذج البيولوجيا الثلاثة التفسيرية؛ وهي نموذج التطور لداروين، ونموذج التصميم الذكي، ونموذج وسطي بينهما وهو البذرات الكونية، ويقدم رؤية توماس كون حول كثرة النماذج الفيزيائية وقلة النماذج البيولوجية، وذلك لأن نماذج الفيزياء قابلة للتجريب في حين نماذج البيولوجيا حدسية وأعمارنا قصيرة!

ويختتم الفصل بعرض تبدلات آراء هوكينج حول الكون ابتداء من نظرية الانفجار العظيم - التي حولها هوكينج لأساس رياضي متين- وحتى كتابه التصميم العظيم، ليخلص الكاتب بقوله: "كأن الما وراء لا بد أن يحضر دائما مستعصيا على التجريب، ليَعجز العلم عجز الفلسفة عن رؤية الله رأي العين أو نفي وجوده نفي اليقين، ليبقى اليقين بوجوده أو نفي وجوده محض اعتقاد، الكل يدلل عليه والعكس.

ويبقى المعتقد ما وقر في القلب وكفى".

الفصل الثالث (قبل الكون وبعده):

يتحدث الكاتب عن الكون ووجوده من جو الأساطير المصرية والسومرية واليونانية، وكذلك آراء الفلاسفة خصوصا افلاطون وأرسطو حول فكرة المحرك الأول، ليصل لزماننا ويقدم آراء آينشتاين حول الزمكان الساكن، وآراء هوكينج في نظرية الانفجار العظيم والمتفردة singularity ، ليتردد بين إله خلق الكون، وبين أن الكون من خلال قوانين الفيزياء يستطيع أن يوجد نفسه بدون تدخل إله!

لكن هذه القوانين من أوجدها؟ يسأل هوكنج ثانية "من أشعل النار في المعادلات ويجعل الكون موصوفا بها؟"

لكنه في كتابه الأخير يرى أن نظرية M قادرة على صنع هذا القانون!

"وهكذا طوال الوقت هناك نموذجان يتصارعان؛ نموذج الكون الحادث، أي أن قبله لم يكن شيئا وهو يستدعي وجود علة أولى، أو موجد لذلك الكون، يستدعي وجود رب أزلي لا يتغير، أو نموذج ذلك الكون الأزلي، فالكون موجود منذ الأزل وهي صورة لا تتسق مع إيمان الكتب السماوية والرسالات".

ليختم الكاتب الفصل بقوله: "وكأن العلم يعيد نفس درس الميتافيزيقيا الذي طالما لقنته الفلسفة".

الفصل الرابع (الهوس بالمركز):

يعرض الكاتب لأن العلم منذ كوبرنيكوس وجاليليو أزاح الأرض عن مركز الكون وبالتالي أزاح الإنسان، وتضافرت البيولوجيا لتزيح الإنسان في نظرية التطور عن مركز الحياة، لتأتي نظرية الانفجار العظيم لتجعل من كل مكان وزمان مركز!

الفصل الخامس (لعبة كريات زجاجية):

يعرض الكاتب لرواية (لعبة كريات زجاجية) التي كتبها الألماني هرمان هسه ما بين عامي ١٩٣١م و١٩٤١م حول لعبة تقع في إقليم كستاليا، شبيه بالفاتيكان، لا تمارسها إلا العقول الفذة، يقوم على شئونها من هو أعلم أهل الأرض، وهي لعبة تجمع كل العلوم والفنون والآداب والرياضيات والموسيقى، ويقوم القائم على شئونها (الماجستر لودي) كل عام بوضع تصور لها يفني فيه كل أيام العام لتكون في آخره جاهزة للعمل.

الكاتب يرى أن نماذج العلم مثل هذه اللعبة، ويعرض لنموذج آينشتاين (النسبية)، ومن ثم نظرية الكم، ونماذج البيولوجيا الثلاثة التي سبق الإشارة إليها، ويطرح رؤية كون في كتابه (بنية الثورات العلمية) حول النموذج الإرشادي أو البارادايم **Paradigm**، وكيفية تكوينه ومن ثم تراجعه ليحل محله نموذج إرشادي آخر أوسع، ومع هذا هناك لي لنتائج النظريات لتوافق النموذج السائد، وخير مثال لذلك خطأ آينشتاين المشهور الثابت الكوني!

الفصل السادس (تسلا أم أديسون):

نقف مع رجلين من رجال الفيزياء المشهورين، تسلا وأديسون، ينفذ الكاتب إلى الموضوع عن طريق فيلم **the prestige** العظمة، حول السحر والعلم، ثم يعرض انجازات تسلا "الرجل الذي أخترع القرن العشرين"، ويقارن بين أديسون ذي التفكير شديد المنطق كالتيار المستمر الذي قدمه، وتسلا العبقري المجنون والذي لا يلتزم بمنهج علمي مثل التيار المتردد الذي قدمه!

ليختم الكاتب الفصل بقوله: "تسلا عكس أديسون، فكلاهما انعكاس للحقيقة؛ ينعكسون بشخوصهم على عمل عقولهم وأيديهم ويصنعون أسطورة العالم".

الفصل السابع (العلم كأسطورة):

يتحدث الكاتب عن أن العلم قد يلتفت لما تركه أو نفاه سابقا ليعود إليه، لكنه يستخدم دلالات وأدوات أحدث، ثم يقدم أمثلة على ذلك اللاماركية حول توريث الصفات الجسدية التي رفُضت من قبل، وتم العودة لها مع الأبيجينات epigenetics وهي تأثير البيئة والظروف المحيطة بالكائن الحي على ترجمة الجينات، وكذلك العودة لمفهوم ابن الهيثم حول أن الضوء لا ينتقل لحظيا، ومثلها خطأ آينشتاين الثابت الكوني الذي تمت العوة له الآونة الأخيرة.

الفصل الثامن (الذكاء الصناعي):

يبدأ الفصل بسؤال لو جليت مع آلة على هيئة بالبشر وتظاهرت بأنها إنسان، هل تستطيع كشفها؟

يعرض الكاتب بعد ذلك لحاسوب تورينج، واختبار تورينج في تقييم مدى نجاح الذكاء الاصطناعي في تقليد الإنسان.

ثم يعرض الكاتب لقصة فيلم **ex machine** أكسا ماكينا حول تفوق الآلة في محاكاة الإنسان لدرجة أن كاليب – بطل الفيلم - شك في بشرته!

ومثله فيلم **her** هي، ويطرح الكاتب أن الذكاء الاصطناعي لا يستطيع مناقشة أفكاره المبدئية.

فهل نحن البشر مثل ذلك؟

كأنه يطرح السؤال القديم : هل نحن مسيرون أم مخيرون؟

ثم يعرج حول أفكار تفوق الآلة على الإنسان، ليختتم الفصل بقوله: "حضارة السيليكون والذكاء الصناعي تهدد حضارة الكربون البشرية"!

الفصل التاسع (بين الإنساني والتجريبي):

يعرض الكاتب لأزمة الثقافين المشهورة (العلمية والإنسانية) التي لفت الناس لها تشارلز سنو في محاضرته الشهيرة عام ١٩٥٩م، لكن الجديد هو تجربة الياباني هيكارو أن منْ درسوا المواد العلمية نسبة المادة الرمادية في الفص الجبهي الأوسط أكبر لديهم، بينما منْ درسوا المواد الأدبية والإنسانية نسبة المادة البيضاء في الحصين الأيمن أكبر لديهم، فهل اختبارنا للدراسة مبني على

الاختلاف التشريحي لأدمغتنا؟ أم نوع الدراسة هي التي تقوم بالتأثير على تركيب أدمغتنا؟

حلقات التأثير بين كافة العلوم موجودة؛ فيشرح الكاتب نظرية التطور منذ جذورها الاغريقية مع أناكسميندر

وحتى دارون، وأفكار نيتشه – الفيلسوف الألماني – حول السوبرمان الإنسان الأسمى كيف دخلت في الأدب عند برنارد شو، ومثلها أفكار ماركس وخطأ بونكاريه والنسوية.

الفصل العاشر (الروح والوعي):

يعرض الكاتب لآراء أفلاطون وأرسطو حول الروح، وأسئلة من قبيل:

ما هي الروح؟

وعلاقة الروح بالوعي؟

وهي أسئلة مغرقة في الميتافيزيقيا وعوالم الماوراء، وهنا يقدم التعريف الجاهزة للكائن الحي وأن الفيروس حلقة وصل بين الكائن الحي والجماد، ويعرج على القانون الثاني للديناميكا الحرارية حول تزايد الإنتروبية (مقياس للفوضى) في الكون، وكيف أن شرودنجر يرى أن (الحياة تعيد تنظيم الفوضى)، ثم يقدم الكاتب – اعتمادا على فيلم الماتريكس

The Matrix الشهير– أن الحياة مجموعة من المعلومات، ليقدم رؤية هوكينج الفيزيائية حول فقدان المعلومات في الثقب الأسود وأنه يشع.

يستند الكاتب على فيلم source code شفرة المصدر ليقول: "هنا يبدو العالم وكأنه انعكاس للوعي، وعينا به، وتبدو نظرية الكوانتم في أوضح صورها".

ليقوم بشرح النظرية بشيء من التفصيل الجيد، ثم يفاجئنا بقوله: "مؤخرا يحاول العلماء التعامل مع الروح باعتبارها الوعي، ويتعاملون مع هذا الوعي باعتباره دالة فيزيائية، دالة تتبع عوالم الكوانتم"!

ويعرض لكتاب biocentrism للعالم روبرت لانزا، الذي فيه أن الوعي هو الذي يخلق مادة العالم وليس العكس.

وأن الموت للجسد وليس الوعي.

الفصل الحادي عشر (الإنتروبيا... التميمة الأقدس):

حول الثاني للديناميكا الحرارية والإنتروبيا وكيف أن سهم الزمن فيه يتجه باتجاه واحد، في حين بقية القوانين تسمح له بالاتجاه العكسي!

ويطرح سؤال فلسفي هل القوانين (لغة هذا الكون) توقيفية أم اصطلاحية؟

ويعرج على الوعي أنه مجرد عرض جانبي للإنتروبيا من خلال تجربة حديثة تبين أن الخلايا العصبية حال الاستيقاظ تظهر فوضى أكبر منها حال الاسترخاء.

ثم يعرض الكاتب لعدم التوافق بين النظرية النسبية ونظرية الكم أو الكوانتم- كما قدّم في فصل سابق- وكيف أن محاولات التوفيق لم تتوقف منذ تلك اللحظة، ولعل أبرزها تلك النظرية التي تعرف بنظرية كل شيء أو نظرية M وهي تشير إلى أن كل القوى في الكون والجسيمات عبارة عن أوتار متناهية الصغر تهتز في أبعاد عشرة (تزيد أو تقل) وبحسب تلك الاهتزازات تمنح الجسيمات أو القوى خصائصها.

وكيف أن قوة الجاذبية عصية على الرضوخ لقوانين الكم وعوالمه، فينقل عن العالِم إريك فيرلندا أن الجانبية ليست قوة أساسية بل هي مجرد عرض جانبي، تنشأ عن إنتروبيا الكون!

فهل التدهور والموت والصيرورة الجبرية نحو اللانظام هو القاسم المشترك الذي يقف خلف كل ظواهر كوننا وهو مجبول على الرضوخ له وطاعته؟

الفصل الثاني عشر (لغة الرب):

وهو مكرس للرياضيات بداية مع فيلم ماتريكس والأرقام، تلك الرياضيات التي يرى كارل بوبر- فيلسوف العلم- أنها ليست علما لأنها لا تخضع للتجريب – حسب تعريفه للعلم! لكن مع مبرهنتي عدم الاكتمال لكورت جودل عاد ليراها مثل الفيزياء والكيمياء.

يعرض الكاتب أشهر مفارقات المنطق: الكذاب الأقريطي وحلاق رسل!

ويعرض لطبيعة الرياضيات التي تؤهلها للتسلل إلى طبيعة علاقات العالم بعيدا عن إدراك حواسنا المحدود

والسؤال الجميل: هل العالم فعلا مصنوع من الرياضيات؟

طبعا هذا السؤال طرحه الرياضي ماكس تجمارك من معهد ماساشوستس Massachusetts التكنولوجي.

الفصل الثالث عشر (مفارقات علمية):

يستعرض الكاتب لمفارقات أخرى مثل مفارقة هنريك أولبرز الشهيرة حول إظلام السماء في الليل، وكيف أجابت نظرية الانفجار العظيم عنها.

ومفارقة هيلبرت حول المالانهاية في فندقه المشهورة!

ثم مفارقة زينون للسباق بين أخيل والسلحفاة وكيف أجابت الرياضيات الحديثة عن ذلك، ثم قطة شرودنجر التي عرضها في الفصل الحادي عشر، وأخيرا مفارقة الجد حول السفر عبر الزمن، لينتهي الفصل بقول الكاتب: "المفارقات لا تنتهي، وكلما حللنا واحدة حمل الحل مفارقات أكبر وأضخم، ربما ليكون قدرنا مطاردة وعينا المحدود بالعالم المتسع باضطراد".

الفصل الرابع عشر (موضات علمية):

يتحدث الكاتب حول الموضات التي تكتسح المجتمع العلمي، فتصعد نظرية ثم تهبط ثم يعود لها الصعود ثانية، مثل نظرية الأوتار الفائقة التي ظهرت في عام ١٩٦٨م ثم تراجع سطوع نجمها لتعود مرة ثانية للاهتمام مرة ثانية، رغم مهاجمة هذا الاهتمام الزائد بها والذي أدخل الفيزياء ألعاب عقلية لا يمكن اختبارها في العالم الواقعي.

ويتساءل الكاتب لماذا يبدو بحث علميا أهم من آخر؟ وتسلط عليه الأضواء؟

هل هي الموضة العلمية؟

الفصل الخامس عشر والأخير (حدود العلم وخضوعه للما وراء): يعود الكاتب للحديث حول كون نيوتن المنضبط والتدخل الإلهي لتعديل كون نيوتن المشابه للساعة!

ثم يعرج على نظرية الانفجار العظيم وتقلب آراء هوكينج حول خلق الكون – كما ذكر في الفصل الثاني والثالث!

ويختتم الفصل والكتاب بقوله: "والعالِم الحق لا يرضخ للميتافيزيقيا حتى ولو كان مؤمنا، شديد الإيمان".

إلمامة من بعيد

عندما تكون في رحاب كتاب يدعوك للتفكير والمراجعة، فأنت حقا تقرأ، وليس مجرد تقليب أوراق!

وهذا الكتاب من هذه النوعية، وهو يعرض أشهر نظريات العلم الحديث في الفيزياء بالذات، والبيولوجيا بشكل مبسط، وهو عرض ليس مفصولا عن ظلال النظريات الفلسفية والتطبيقية.

الكتاب كان تجميع لمقالات منشورة – كما يبدو- لذا تجد بعض المعلومات تتكرر في أكثر من مقال، وهذا عيب الكتب الناتجة من مقالات متباعدة!

يمكن تجاوز هذه الناحية الشكلية، التي لا تقلل من القيمة العلمية التي يقدمها الكتاب، خصوصا عرضه لآخر الأبحاث حول الوعي والإنتروبيا وغيرها.

في الفصل الثالث (قبل الكون وبعده) عرض الكاتب في آخره "إننا احتجنا لـ 13.4 مليار سنة هي عمر الكون"، أظن أن الرقم قد تغير وأصبح 13.8 مليار سنة.

أما في فصله الرابع (الهوس بالمركز) يتحدث الكاتب عن أن الانفجار العظيم حدث في كل مكان وزمان؛ على اعتبار أن مركز الانفجار أو نقطته أتسعت لتشمل الكون كاملا!

فهل هذا صحيح علميا؟ أم أنه اجتهاد من لدن الكاتب؟

في الفصل الرابع عشر (موضات علمية) يقول الكاتب: "هي نظرية الكواركات (تنص على أن الجسيمات شديدة الضآلة كالإلكترونات والبروتونات وغيرها مكونة من جسيمات أصغر تسمى كواركات)".

البروتونات والنيترونات مكونة من الكواركات صحيح، لكن الإلكترونات لا!

الإلكترونات هي جسيمات قائمة بذاتها.

ومع هذا يظل الكتاب رائعا وهو يقدم التساؤلات تلو التساؤلات، ويطرح أراء جريئة معتمدا على نظريات العلم الحديث، وكم تمنيت لو أن الكاتب وضع مراجعه التي عاد إليها في آخر كتابه الجميل ليرجع إليها منْ يريد التوسع حول موضوعات الكتاب.

***

التفسير الماركسي للإسلام *

* نشر المقال في ملحق أفكار التابع لصحيفة الجمهورية – اليمنية - بتاريخ ١٤ يوليو ٢٠١٠م

في عام ١٩٩٦م صدر كتاب (التفسير الماركسي للإسلام) للدكتور/ محمد عمارة في طبعته الأولى عن دار الشروق، والذي تضمن دراسة مستوفية، وناقدة لأعمال الدكتور/ نصر حامد أبوزيد – الذي وافته المنية الأسبوع الماضي (٥ يوليو ٢٠١٠م) – فرأينا أنه من باب إعطاء كل ذي حق حقه، عرض هذا الكتاب ليكون دليلا لكل قارئ للدكتور/ نصر أبو زيد.

يقع الكتاب في ١٣٣ صفحة من القطع الكبير، ويحوي أربع مقدمات تمهيدية، وقسمين، وختام، ففي البداية يعرض الدكتور/ محمد عمارة سبب تأليف هذا الكتاب؛ هو أنه لما هدأ "القصف الاعلامي المتبادل" الذي شهدته ساحتنا الفكرية في الضجة التي ثارت حول أفكار الأستاذ/ نصر حامد أبوزيد، والتي امتدت إلى ثلاث سنوات (٩٢-١٩٩٥) أعتقد أن الوقت قد حان لتقديم "دراسة علمية موضوعية" تحاول قدر الطاقة الالتزام بروح العدالة الفكرية/ وفضائل أدب الحوار".

وفي مقدمته الأولى، يشرح د/ عمارة بداية متابعته لأعمال د/ نصر، وكيف التقى به لأول مرة في مجلس عزاء في جامع عمر مكرم، وكيف عرّف الاستاذ/ محمود امين العالم للدكتور/ نصر أبوزيد- بقوله: "الدكتور/نصر أبو زيد أحسن من يحلل النص"، وكيف عرف د/عمارة أن النص المقصود هو القرآن الكريم نفسه!

وفي مقدمته الثانية، تتعلق برأي د/عمارة حول الحكم الذي أصدرته محكمة استئناف القاهرة بالتفريق بين الدكتور/ نصر أبوزيد وزوجته د/ ابتهال يونس، تأسيسا على ثبوت ارتداده عن دين الإسلام، حيث يقول د/عمارة: "إن قضية الدكتور/ نصر أبوزيد هي قضية فكرية، مجالها الحوار الفكري، والمختصون فيها هم المفكرون، والباحثون، وليس قضية قانونية يختص بها المحامون، ودوائر القضاء، فأنا ضد مصادرة كتب نصر أبو زيد، أو سعيد العشماوي، ومن لف لفهما، لأن الإسلام دائما كان يطلب البرهان"، ويطرح د/عمارة سؤالا؛ ما الذي يستفيد الإسلام من التفريق بين زوجين؟ محذرا من الحكم على عقائد الناس، طالباً الرد الفكري، لأن التعددية الفكرية – في المنظور الإسلامي –

تسع العلمانيين، بل والشيوعيين، فالحل هو التعددية والحوار.

والمقدمة الثالثة، تدور حول ظاهرة التكفير في حياتنا المعاصرة، وسرد الدكتور/ عمارة الكثير من الأدلة أن الكفر أمر قلبي، وأن الذين يتجاوزون حدود (الظاهر) إلى الحكم على ما في الضمائر، لا ينتهكون فقط ثوابت الإسلام، وإنما يغتصبون لأنفسهم سلطان الله، الذي تفرد بالعلم المحيط بما في سرائر القلوب، مستشهدا بعبارة حجة الإسلام الغزالي "إن التكفير صنيع الجهال ،فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه".

أما المقدمة الرابعة، تدور حول الموقف الشرعي من الارتداد عن دين الإسلام، شارحا مدلول الإيمان، وأن حرية الاعتقاد حق طبيعي، والحرمان منها قهر للإنسان على النفاق، لا يمكن أن يثمر إيمانا، أو اعتقادا راسخا، وأن (التعبير) عن هذا الاعتقاد، هو حق تحكمه اعتبارات الصالح العام، ومقتضيات الحفاظ على المقومات الأساسية للاجتماع الإنساني، الذي تعارف عليها مجتمع من المجتمعات.

ثم ناقش موضوع حد الردة بتفصيلها، مشددا على خلو تجربة دولة النبوة في المدينة من حد الردة على هؤلاء المرتدين، مستشهدا بالآيات على ذلك، مناقشا التراث الفقهي حول حد الردة بتفصيله.

ثم يشرع الدكتور/عمارة في القسم الأول من كتابه المعنون بـ (ما لا يجوز الاختلاف فيه)؛ ففي أول جزئية منه، والتي تحمل عنوان الكتاب (التفسير الماركسي للإسلام)، ذكر فيه حدث التفريق بين الدكتور/ نصر أبوزيد وزوجته، ثم البيان الذي نشره الدكتور/ نصر بعد أيام، والذي يعلن فيه افتخاره أنه مسلم، وإيمانه بأركان الإيمان الستة، وأنه فخور بإنجازاته الفكرية، ولن يتنازل عن اجتهاده فيها، إلا بالإثبات الدليل، والبرهان أنه مخطئ، وأنه مستعد لشرح ما هو غامض وملتبس على الناس.

ثم يتوجه الدكتور/عمارة إلى الماركسية، وتفسيرها للعالَم، والخلق، والمصير، والعلاقة بين البناء الفوقي – الفكري – والبناء التحتي – المادي-، وكيف استخدمها الدكتور/نصر أبوزيد في تفسير الإسلام؛ على أنه بناء فوقي ناتج من

إفرازات البنى الاقتصادية، والاجتماعية، والمادية -البناء التحتي –، متهماً الخطاب الديني بإهدار ما في الماركسية من دعوة إلى تغيير العالم، لا تفسيره، ثم ينتقل الدكتور/عمارة إلى الجزئية الثانية من هذا القسم، والتي تحمل عنوان (الرؤية المادية للقرآن الكريم)؛ عارضاً أن الدكتور/نصر أبوزيد انطلاقاً من (المادية الجدلية) يقول لقرائه، أن القرآن قد تشكل في الواقع، وصعد منه ولم يهبط إليه؛ فالوقائع أنتجت النصوص، وشكلت النص ..فالواقع الجاهلي، وآثار الحنيفية المنسوبة إلى إبراهيم -عليه السلام- هي مشكلِة للنص، بل ويشرد الدكتور/نصر إلى أن القرآن نص ملفق، ومنقى من كتب سابقة، ورد الدكتور/عمارة على ذلك كله من خلال أدلة السابقين، واللاحقين حول المادية الجدلية، وثقافة الواقع وغيره، وفي آخر الفصل يقارن الدكتور/عمارة بين اعتقادات المسلمين عن القرآن، وآراء الدكتور/نصر أبوزيد.

وفي الجزئية الثالثة من نفس القسم المعنونة بـ (التفسير المادي للنبوة والوحي والعقيدة والشريعة)، يشرح الدكتور/عمارة تعميم تطبيق الدكتور/ نصر أبوزيد لمنهجه الماركسي على أساسيات الاعتقاد الإسلامي؛ فالنبوة يراها

دكتور/ نصر أبوزيد ليست اعجازا ومفارقة لقوانين المادة، بل هي مجرد درجة معنوية في الخيال ناشئة عن فعالية المخيلة الإنسانية يتصل بها النبي بالملَك، فالواقع هو المسيطر ..أما العقيدة فمؤسسة على التصورات الأسطورية في الوعي الثقافي، والشريعة صاغت نفسها مع حركة الواقع وتطوره..

ويختتم الدكتور/عماره هذا القسم بجزئية (تاريخية معاني واحكام القرآن) بعرض نظرة الدكتور/ نصر أبوزيد حول أحكام القرآن؛ ففي البداية يوضح الدكتور/عمارة منهج المفسرين في تقسيم آيات القرآن الكريم، إلى محكم ومتشابة، وما على المفسر، وكيفية فهم دلالة الألفاظ بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر النزول، وأن الحفظ للقرآن يتجاوز ألفاظه إلى أحكامه وثوابته، لتستمر الصبغة الإسلامية لحضارة الإسلام عبر الزمان والمكان، لكن الدكتور/نصر أبو زيد يرى أن القرآن خطاب تاريخي يتعدد فهمه بتعدد القراءات، مفرقا بين تاريخية المعنى واستمرارية المغزى، مطبقا على القرآن مذهب الناقد الأمريكي (هيرش) الذي طبقه على النصوص الأدبية!

ثم يسرد الدكتور/عمارة نماذج من كتابات الدكتور/نصر أبو زيد، التي تشرح فكرة تاريخية المعاني والاحكام التي جاءت في القرآن الكريم، ويرد الدكتور/عمارة على ذلك كله بموضوع القياس وأسباب النزول وغيرها، وفي ختام هذا القسم يقارن الدكتور/عمارة بين عقيدة المسلمين في الوحي والقرآن، وآراء الدكتور/نصر أبوزيد.

في القسم الثاني من الكتاب المعنون بـ (ما يجوز فيه الاختلاف)؛ ففي جزئيته الأولى المعنونة (قلة العلم) يعرض الدكتور/عمارة، أن الدكتور/ نصر أبوزيد يدرّس (الإسلاميات) بقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، وأن هذا هو تخصصه في الماجستير والدكتوراه، لكنه يصادم القارئ بقلة علمه في أمور لا يصح أن تغيب عن أستاذ متخصص في الإسلاميات منها: في كتابه (مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن) يرى [أي الدكتور/نصر] أن كل آية نزلت بسبب خاص مستوجب نزولها إلا قليل جدا.

ويرد الدكتور/عمارة أن عدد الآيات التي لها أسباب نزول من مجمل آيات القرآن الكريم – البالغ عددها٦٢٣٦- لا يعدو

٤٧٢ آية أي ٧.٥% من آيات القرآن الكريم، وأما الذين جمعوا كل روايات أسباب النزول دون تدقيق، فبلغت عدد الآيات عندهم ٨٨٨ آية؛ أي ١٤% من آيات القرآن الكريم، لا كما يقول الدكتور/نصر (كل آية إلا قليلاً جداً).

ويورد الدكتور/عمارة أموراً أخرى في السيرة والتاريخ الإسلامي وغيرها التي يقدمها كنماذج على قلة العلم، ويفندها جميعا.

وفي الجزئية الثانية من هذا القسم والمعنونة بـ (سوء الفهم والنية)؛ يعرض الدكتور/عمارة للصور التي يقدمها الدكتور/نصر أبوزيد لرجالات التاريخ الإسلامي من المهاجرين، وما حدث في السقيفة، التي يراها الدكتور/نصر أبوزيد أنها تدشين السيطرة القرشية على الإسلام والمسلمين والتوجه الأيديولوجي للإسلام لتحقيق السيادة القرشية من خلال (فرض) – على حد تعبيره- لهجة قريش على القرآن الكريم.

ورد الدكتور/عمارة عن ذلك بمنهجية القراءات في القرآن وحديث الأحرف السبعة.

وخصص الدكتور/نصر أبوزيد كتابا قائماً بذاته لنقد الإمام الشافعي تحت عنوان (الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية)، وكذلك اجتراؤه على الإمام الغزالي من خلال منهجه الماركسي حول السببية والمسبب وغيرها، والتي يفندها الدكتور/عمارة في ١٥ صفحة كاملة.

ويختتم الدكتور/عمارة هذا القسم بجزئية معنونة بـ (خلل المنهج)؛ حيث يقدم الدكتور/عمارة خمس وقفات حول مصطلحات شاع استخدامها في كتب الدكتور/نصر أبوزيد، وهي :

١/ مصطلح الأيديولوجية

٢/ مصطلح الوسطية

٣/ مصطلح النص

٤/ مصطلح الحاكمية

٥/ مصطلح التأويل

شارحاً خلل منهج الدكتور/نصر أبوزيد في التعامل مع مدلول وترجمة هذه المصطلحات التي حملت بعض عناوين كتبه مثل

الإمام الشافعي، وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، وتأويل النص، ومفهوم النص وغيرها.

ويختتم الدكتور/عمارة هذا القسم، باستغرابه أن يكون التفسير الماركسي للإسلام هو الاجتهاد الإسلامي المعاصر؟

وأن تصبح (قلة العلم)، و(سوء الفهم والنية)، و(خلل المنهجية) هي شروط ومقومات المجتهدين المعاصرين؟

ويختتم الكتاب بجزئية على شكل سؤال (وبعد فهل من سبيل إلى مراجعة الأفكار؟)، عارضا خلاصة للكتاب، والحوار الذي دار بين المفكر والمحامي الإسلامي الأستاذ عادل عيد والدكتور/نصر أبو زيد أثناء التحضير للدفاع عنه في قضية الردة.

ومن ثم شرح الدكتور/عمارة نماذجا لمفكرين عادوا إلى الجادة بعد شطحات فكرية، منهم منصور فهمي باشا، والدكتور/ طه حسين، والدكتور/ محمد حسين هيكل، ولا ينسى الدكتور/عمارة نفسه كواحد من هؤلاء.

ويدعو الدكتور/نصر أبو زيد إلى مراجعة أفكاره التي عرضها في كتبه، ليختتم الدكتور/عمارة هذا الكتاب بالعبارة

التالية "إن الذين لا يراجعون أفكارهم هم العجزة والجبناء والموتى والجمادات".

***

اللغة الشاعرة *

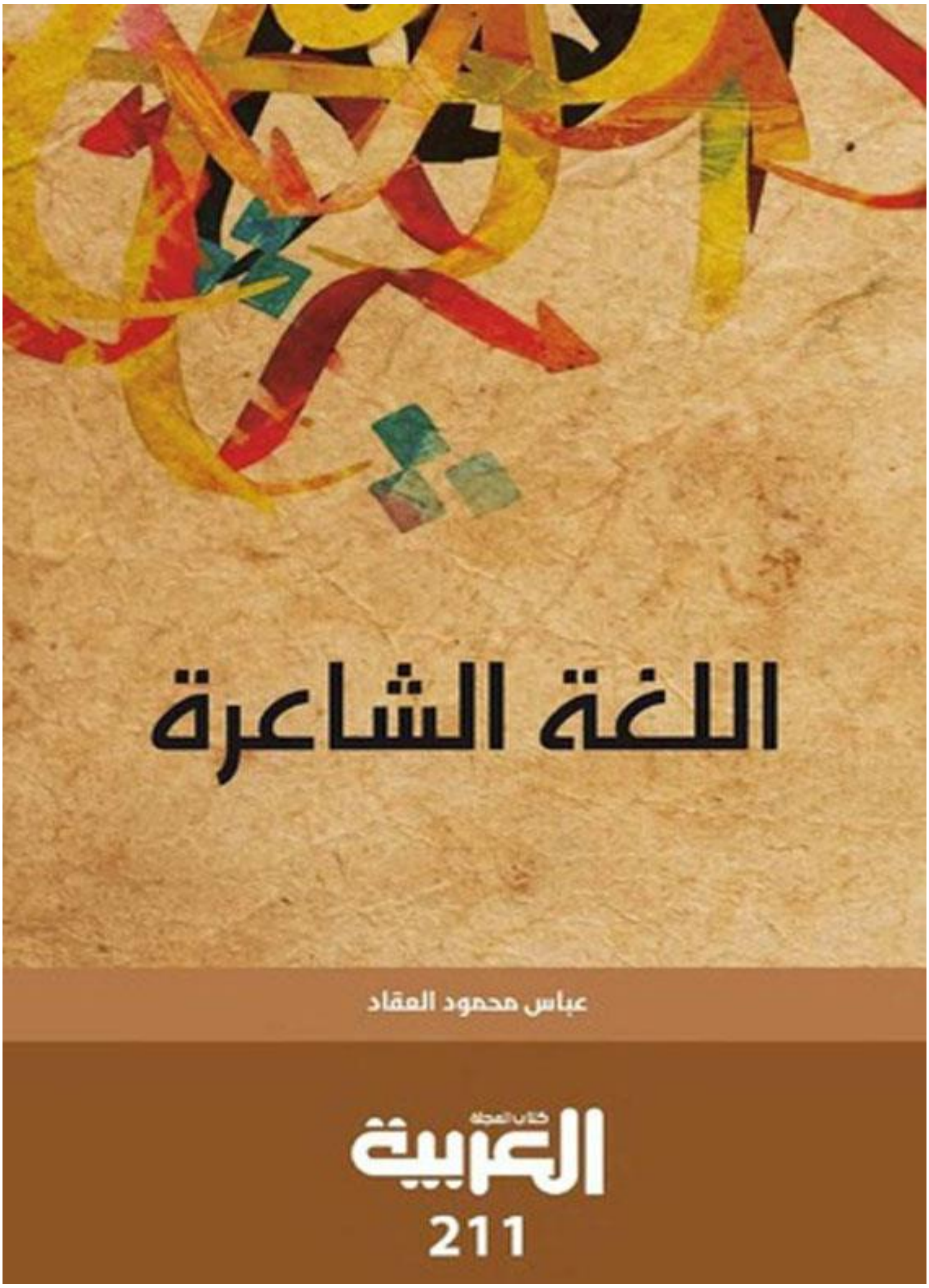

* نشر المقال في موقع كلافو http://clavo.me/ – بتاريخ ١٨ ديسمبر ٢٠١٦م

-الكتاب: اللغة الشاعرة
-المؤلف: عباس محمود العقاد
-عدد الصفحات: ١٣٦
-الناشر: كتاب مجلة العربية - رقم ٢١١ العدد ٤٥٠ مايو ٢٠١٤م

مؤلف الكتاب غني عن التعريف فهو عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وكفى!

أما الكتاب فيتحدث عن خصائص العربية المميزة لها عن باقي اللغات، ولماذا سماها لغة شاعرة!

ففي مقدمة الكتاب (فاتحة عريقة) يرى الكاتب أن بدايات العربية بخصائصها المميزة اليوم لم تبدأ في القرن الرابع قبل الهجرة - كما يقول علماء المقارنة بين اللغات- بل إلى عصر قبل ذلك، "لأن المقابلة بينها وبين أخواتها السامية يدل على تطور لا يتم في بضعة أجيال، ولابد له من أصل قديم يضارع أصول التطور في أقدم اللغات، ومنها السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية الجرمانية".

هذه المزايا هي محور الكتاب، ثم ينتقل للحديث فكرة أن العربية لغة شعرية- كما فُهمت قديما – أي "أنها لغة يكثر فيها الشعر والشعراء، وأنها لغة مقبولة في السمع يستريح

إليها السامع كما يستريح إلى النظم المرتل والكلم الموزون، كما يقصدون بها أنها لغة يتلاقى فيها تعبير الحقيقة والمجاز على نحو لا يعهد له نظير في سائر اللغات، أو انفراد اللغة العربية بالعروض" وكله صحيح، لكن لا يكفي أن يقال عنها أنها لغة شعر، أو لغة شعرية، فاللغة الشاعرة تصنع مادة الشعر وتماثله في قوامه وبنيانه، إذا كان قوامها الوزن والحركة، وليس لفن العروض ولا للفن الموسيقي كله قوام غيرها.

فصول الكتاب

بعد المقدمة تتلاحق فصول الكتاب؛ ففي الفصل الأول (الحروف) ينقد الكاتب الوصف القديم للغة الشاعرة ثم عرض الكاتب للمفهوم من وجهة نظره "أنها لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء" وهذه الخاصة في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة، إلى تركيب مفرداتها على حدة، إلى تركيب قواعدها

وعباراتها، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيدة.

وهنا عرض لحروف العربية الـ٢٨ التي جعلت أوفر عدداً في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها؛ فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية، وإنما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف على حسب موقعها من أجهزة النطق، وكذلك تمتاز اللغة العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد والظاء والعين والقاف والحاء والطاء، أو توجد في غيرها أحياناً ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحدة.

أما في الفصل الثاني (المفردات) فقد عرض الكاتب لميزة في مفردات العربية وهي "أن نلاحظ في تركيب المفردات من الحروف أن الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في اللغة العربية في المفردات اللغة"؛ فالفرق بين (ينظر وناظر ومنظور ونظير ونظائر ونظارة ومناظرة ومنظار ومنظر ومنتظر) وما يتفرع عليها هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن، أو قياس صوتي وقياس مثله، يتوقف على اختلاف

الحركات والنبرات، أي على اختلاف النغمة الموسيقية في الأداء.

ومن ميزاتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية في وقت واحد بغير لبس في التعبيرين، وضرب مثلا لذلك كلمة (الفضيلة) تدل بغير لبس على معنى الصفة الشريفة في الإنسان، ولكن مادة (فضل) بمعنى الزيادة على إطلاقها لا تفقد دلالتها الواقعية على المواد المحسوسة، بل يصح عند المتكلمين والمستمعين أن يفهموا (فضول) القول على أنه وصف غير حميد، لأن الزيادة في غير جدوى تخالف الزيادة المطلوبة إذا كان المقام مقام القول في صفات الكلام، ومثلها كلمة بلوغ.

فلا يصعب الجمع بين التعبير الواقع والتعبير المجازي الشعري في مئات من الكلمات تجري على الألسنة كل يوم وتؤدي إلى السامعين معانيها النظرية الفكرية ومعانيها الحسية في وقت واحد بغير لبس بين المقصود في كل مقام

<u>والفصل الثالث (الإعراب)</u> بدأه الكاتب بإثارة سؤال أيهما أسبق إلى الظهور، وأيهما أقدم في تاريخ الأدب؟

الذي يجيب عنه "والذين يسألون هذا السؤال لا يجهلون أن الكلام المنثور سابق للكلام المنظوم".

ويعرّج على ظاهرة الإعراب في العربية التي يعتبرها "آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة"، "لأن هذه الحركات والعلامات تجري مجرى الأصوات الموسيقية تستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور لأن علامات الإعراب تدل على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنظومة".

ويضرب مثلا بكلمة ضئيلة التي استخدمها النابغة قديما وشوقي حديثا .

<u>أما في الفصل الرابع (العروض)</u> فالحديث عن الشعر الذي "قد وجد في كل لغة من لغات القبائل البدائية والأمم المتحضرة، ولكنه لم يوجد فناً كاملاً مستقلاً عن الفنون الأخرى في غير اللغة العربية"، ويقصد بالفن الكامل "هو الشعر الذي توافرت له شروط الوزن والقافية وتقسيمات البحور والأعاريض التي تعرف بأوزانها وأسمائها وتطّرد

قواعدها في كل ما ينظم من قبيلها" والذي تميزت لها العربية دون اللغات الأخرى.

وسبب ذلك "هو الحِداء، إن الحِداء غناء منفرد موقع على نغمة ثابتة وهي حركة الجمل في حالتي الإسراع والإبطاء".

ثم يشير إلى أن كلمة (الشعر) مع تحريفاتها الكثيرة ترجع في اللغات السامية إلى أصلها العربي كما يرى الثقات من اللغويين المحدثين.

في الفصل الخامس (أوزان الشعر) يرى الكاتب أن "فن الشعر في اللغة العربية يناسب اللغة الشاعرة التي انتظمت مفرداتها وتراكيبها ومخارج حروفها على الأوزان والحركات وفصاحة النطق بالألفاظ" بدون الحاجة إلى إيقاع الرقص الذي يصاحب إنشاد الشعر في اللغات الأخرى أو "مصاحبة الغناء لترتيب أوقاته، وضبط مواقع المد والسكون في كلماته، لأنه مرتب مضبوط في كل كلمة، بل في كل جزء من أجزاء الكلمة، يجمع بين الحركة والسكون"، ثم يعرض للخيل واكتشافه علم العروض، بل حتى الأميون "لا تخرج عن أوزان تلك البحور ولا يحس الناظم الأمي أنها عسيرة عليه، فهو لا يحتاج إلى أداة غير

السليقة الفنية والقدرة المطبوعة على التعبير"، ويرى الكاتب "أن أبلغ ما تقدم في الإبانة عن معدن اللغة العربية وعن هذه الخاصة الفنية فيها أن أوزانها تتفق في ترتيل فصيح ولو لم يكن شعراً مقصوداً كما اتفقت في الآيات الكثيرة من القرآن الكريم"!

وفي الفصل السادس (المجاز والشعر) يرى الكاتب "أن اللغة العربية تسمى بلغة المجاز لأنها تجاوزت بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسة إلى حدود المعاني المجردة"، بل ويعلل ذلك لأن المجاز قد انتقل في اللغة العربية من الكتابة الهيروغليفية إلى الكتابة بالحروف الأبجدية، "فيصور لنا المعاني المجردة – مباشرة- من وراء تصوير الأشباه والأشكال".

وتوجد كلمات كثيرة بقي لها معناها الحقيقي مع شيوع معناها المجازي على الألسنة، حتى ليقع اللبس في أيهما السابق وأيهما اللاحق في الاستعمال، وضرب الكاتب أمثلة لذلك منها كلمتي الحقيقة والمجاز؛ "الحقيقة فكرة مجردة، قد تبلغ الغاية في تجردها من المحسوسات، ولكن مادة الكلمة تستخدم للدلالة على ما يلمس باليد ويقع تحت النظر،

فيقال (انحقت) عقدة الحبل أي انشدت وحق بلغ حافة الطريق، والمجاز من جاز المكان أو جاز به غير معترض، ويقال هذا جائز عقلاً أي غير ممتنع ولا اعتراض عليه، وهذه كلمة مجازية أي يمكن أن تنطلق في هذا المعنى، أو أنـها تحتمله مع معناها الأصيل".

ويلاحظ الكاتب هذا الاقتران بين المعاني المجردة والمعاني المحسوسة في كثير من المسائل الفكرية والصفات الخلقية التي تجتمع في مادة واحدة: كالواجب والفريضة والفضيلة والحكمة والعقل والعظمة والأنفة والعزة والنبل والشرف والرحمة والجمال والنشر والعلم والشك والثقة والذكاء إلى كثير من أشباهها.

فيقال وجب بمعنى ثبت، والوجبة بمعنى الأكلة في وقت ثابت، والواجب بمعنى اللازم أو العرف أو المنطق. ويقال (الفريضة) عن الخشبة التي فرضت أو حزت وبينت فيها العلامات، ويقال (الفرائض) عن الحدود المبينة الواضحة.

ويخلص الكاتب إلى "أننا لا نحتاج كثيراً إلى التسلسل التاريخي في وضع معجماتنا الحديثة، لأن هذا التسلسل ضروري في اللغات التي يكثر فيها إهمال الكلمة في معنى

وسيرورتها في معنى آخر". وكذلك "أن العرب كانوا مجددين على الدوام في إطلاقهم الكلمات القديمة على المعاني الجديدة" وهنا يرى الكاتب "أن شرط اللغة علينا أن نصنع كما صنع أهلها، فنجدد في المعاني من طريق المجاز بحيث لا يكاد السامع يفرق بينهما للوهلة الأولى أهي أصل في اللغة قديم أم مجاز جديد".

في الفصل السابع (الفصاحة العلمية) يبدأ الكاتب بالحديث عن المفاخرة بين الأمم بلغاتها، لكن العربية ذات اللفظ الفصيح فيقول "إن اللفظ الفصيح هو اللفظ الصريح الذي لا لبس فيه ولا اختلاط في أدواته، وهذا هو (اللفظ العربي) بدليله العلمي"، ثم يسرد أدلته فلا لبس بين مخارج الحروف في اللغة العربية، ولا إهمال لمخرج منها، وجميع المخارج الصوتية في اللسان العربي مستعملة متميزة بأصواتها، ولا تزدحم أصوات الحروف في اللغة العربية على مخرج واحد.

أما كيف انفردت اللغة العربية بهذه المزية النادرة؟

فيجيب الكاتب "إن تعليل هذه الفصاحة بالتطور الطبيعي كاف لتفسير هذه الظاهرة في اللغة العربية، فإن لهجات النطق بالحروف العربية إنما هي لهجات قبائل متعددة تنطق

بلسان واحد، وتتهيأ أسباب الانتخاب الطبيعي في هذا اللسان لتتابع الاتصال بين الناطقين به من أبناء القبائل المتعددة، خلافاً للأمم الأخرى التي تختلف لغاتها وتفترق مساكنها ولا تظهر آثار التطور اللغوي عندها في بيئة واحدة تتفاهم بلسان واحد".

وفي فقرة (لغة التعبير) يرى الكاتب أن "اللغة المعبرة أن يقال إنك تضع معجمها بين يديك فكأنما قد وضعت أمامك قواعد تاريخها ومعالم بيئتها، ولم تدع لمراجع التاريخ والجغرافية غير تفصيلات الأسماء والأيام.

واللغة العربية كما يرى العقاد في طليعة اللغات المعبِّرة".

ثم يورد الكاتب أمثلة لمصطلحات الجماعات كشعب وأمة ومجتمع وأسماء الاماكن كمنزل ومسكن وبيت وغيرها.

وإذا التبس علينا أمر كلمة من الكلمات، فلم نعلم في ظاهر الأمر أهي من ألفاظ العرب الأصيلة أم من الدخيل عليها، فلدينا هذا المقياس الحاضر نقيس به دلالة الكلمة ونردها إلى حياة العرب وإلى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة، فلا يطول بنا العناء في الرجوع بها إلى أصل معقول نطمئن إليه.

وفي الفصل الثامن (الزمن في اللغة العربية) يرى الكاتب "أن ارتقاء اللغة يعرف بمقاييس كثيرة من أهمها الدلالة على الزمن في أفعالها، ثم في سائر ألفاظها"، وكذلك يرى الزمن الماضي (مهم) عند أبناء البادية العربية في كل عهد من عهوده، لأنه مستودع المفاخر والأنساب والثارات والسوابق والذكريات، وليس من المصادفة أن يسمى التاريخ هنا باسم الأيام، وأن يعرف لكل يوم أثره فيما كان وما يكون.

أما الزمن الحاضر فلا غرابة في العناية بأجزائه وتقسيماته، لأن كل لحظة منه ذات شأن في الحركة والإقامة، وفي المرعى والتجارة، وفي الحرب والأمان. وليس من الطبيعي أن يبلغ إحساس قوم بالوقت هذا المبلغ ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس به في مختلف مواضعه ومناسباته.

أما لماذا خلت العربية من التقسيم المعتاد ماضي وحاضر ومستقبل لأن المضارع يدل على الحال متصلاً بالاستقبال، ولا يكون الفعل إلا للحال والاستقبال أو يكون الزمن فيه مضارعاً للزمن السائر الذي لا يستقر على قرار.

ثم يعرج بعد ذلك على الشعر ديوان العرب ويقدم نماذجا حول ذلك من الشعر الجاهلي والعباسي عن فلسفة الحياة.

في الفصل التاسع (نقد الشعر العربى) يعرض الكاتب لنقد المستشرقين في نقد شعرنا القديم ويعلل ذلك أن يجهلون روح العربية وآدابها وضرب أمثلة بقصائد منحولة وكذلك بأخطاء في الاستدلال التاريخي.

في الفصل العاشر (النقد العلمى) عرض الكاتب للحل في نقد هذا الاختلال وهو النقد العلمي وذهب لعرض أخطاء في الاستدلال التاريخي في قصة لأمرئ القيس وما نسب إليه من حكايات .

والفصل الحادي عشر والأخير (الشعر العربى والمذاهب الغربية) جملة عروض لعلاقة شعرنا العربي للمذاهب الأدبية التي ظهرت في القرون المتأخرة كاللامنطقية والمستقبلية وخلافه.

لمحة عامة

الكتاب رائع لو أن الكاتب اكتفى بالفصول إلى الزمن في اللغة العربية، وأحس أنه أقحم فصول الشعر بعد ذلك كأنه

يضرب الأمثال على تركيب اللغة الشاعرة والفصل بينها وبين لغة الشعر نفسه!

وكان في مقدور الكاتب أن يكتفي بالخصائص فقط أو يضيف خصائص أخرى يعرضها ضمن كتابه.

على العموم يظل الكتاب رائعا بعد كل هذه السنوات وهو يقدم ببساطة خصائص العربية للقارئ غير المتخصص بمثل هذه السهولة واليسر مما يغني عن كتب كثيرة.

***

تاريخ العلم *

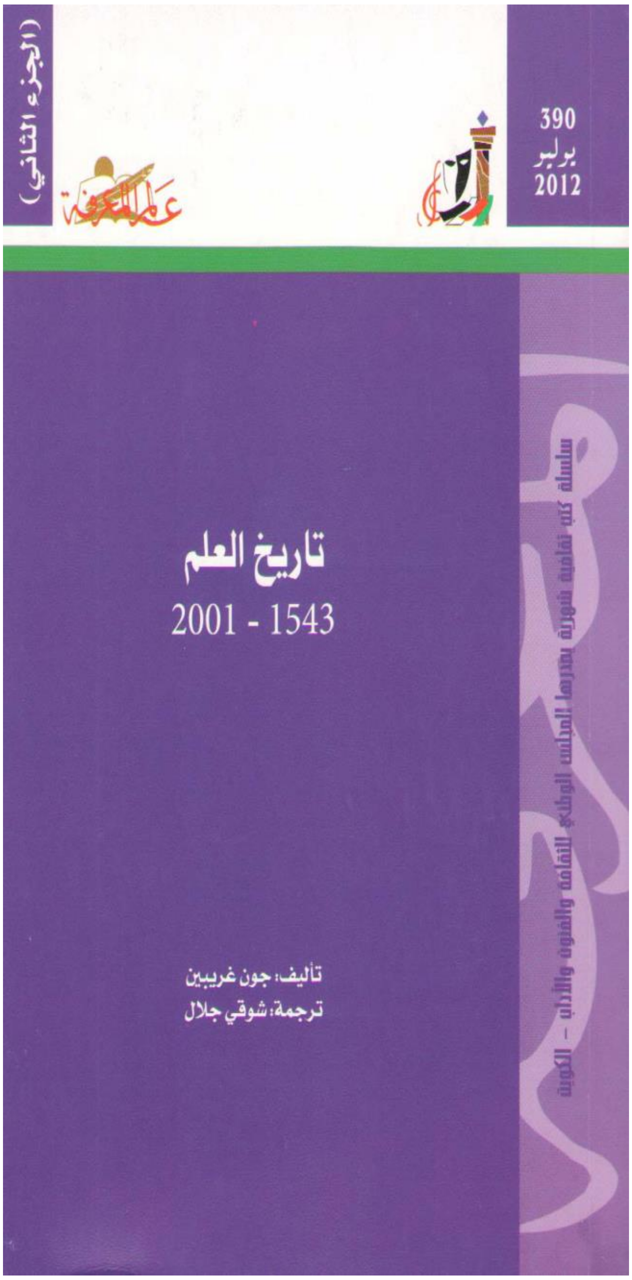

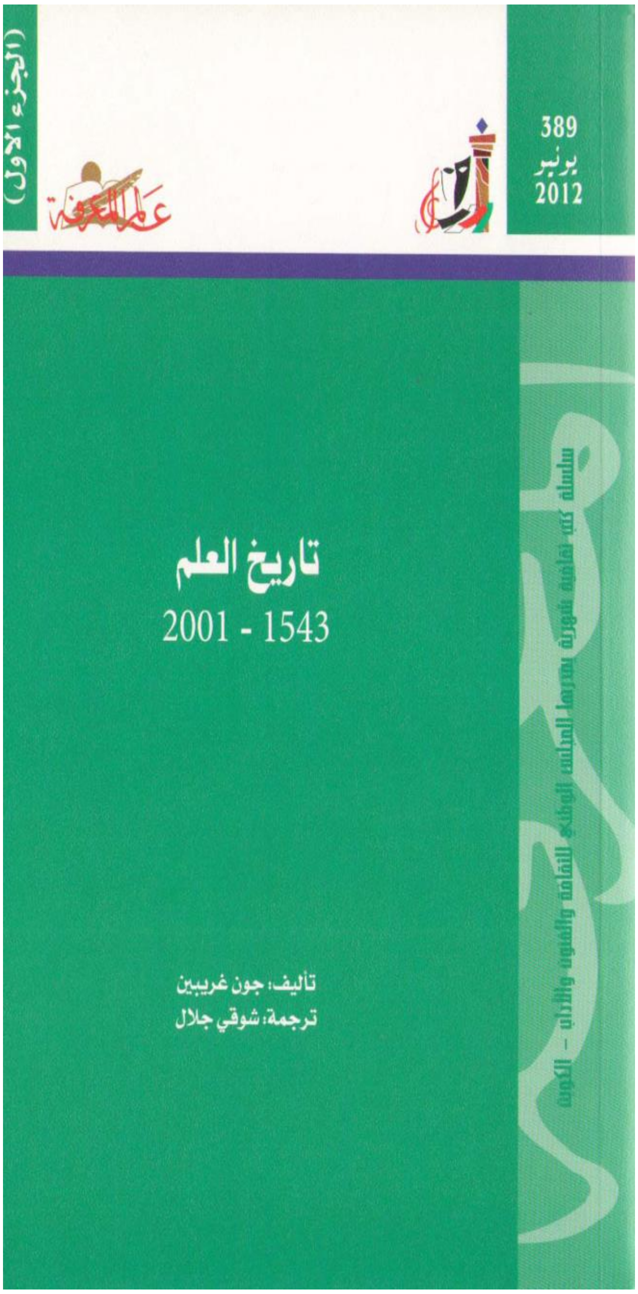

* نشر المقال في مجلة علم وخيال الإلكترونية – العدد ٢٥ في مارس ٢٠١٦م

"إن **تاريخ** العلم، وليس تاريخ العروش والتيجان والحروب والمؤامرات، هو التاريخ الحقيقي للإنسان، وصلب قصة الحضارة في تطورها الصاعد".

هكذا تعبّر د يمنى طريف الخولي عن تاريخ العلم وأهميته في كتابها "فلسفة العلم في القرن العشرين"، لذا لا غرابة أن تكون هناك كتب وموسوعات تشرح تاريخ العلم وتطوره عبر العصور.

وبين يدينا واحد من أحدث الكتب حول هذا الموضوع؛ إنه كتاب "تاريخ العلم" الذي ترجمته سلسلة عالم المعرفة عام ٢٠١٢م في جزأين لمؤلفه جون جريبين؛ الذي يعد واحد من كبار الكتّاب المعنيين بتبسيط العلم وله مؤلفاته واسعة الانتشار، التي أثارت الاعجاب بقدرته الفائقة على تبسيط أعقد الافكار مع إثارة حس الدهشة بغرابة الكون دون الاخلال بدقة المعلومات العلمية الجوهرية، فهو ليس مجرد هاوي بل عالِم فيزياء فلكية بجامعة كامبريدج ولديه مشاركات في العلم أشار لها في هذا الكتاب.

يقع الكتاب في جزأين؛ الجزء الأول يبدأ بمقدمة المترجم الاستاذ شوقي جلال الذي عرّف تاريخية العلم وأورد بعضا من خصائصه؛ كعالمية العلم وأنه لا توجد حقيقة مطلقة ولا يقين مطلق وأنّ الحقيقة العلمية على المحك دائمًا، وأن الصراع لم يكن صراعًا بين الدين في ذاته والعلم كما يحلو للبعض أنْ يقول، بل بين الجمود والتجديد، بين الإبداع وحياة السكون والتحجر الفكري.

ويشير المترجم إلى سبب الاهتمام بنشر تاريخ العلم والعلماء وذلك "باعتباره ذاكرة بشرية عن أهم قوى دافعة لبناء الحضارات وعن عبقرية الإنسان، وقدرته على النفاذ إلى أعماق الكون الأعظم والكون الأصغر لاستيعاب قوانين الحياة الطبيعية، بما في ذلك حياة الإنسان في صورة نظريات متجددة، إذ يؤكد التاريخ دينامية البحث العلمي المتطورة نظرياً وتطبيقياً، مؤكداً أن كل مرحلة سبقتها مراحل أو مركز أو مجتمعات علمية تنتسب إلى حضارات عدة منها العربية والبابلية والآشورية، والازتيك والمايا وغيرها، ولكن الشيء اليقيني أن الإنسان رهن الفعالية النشطة.. ".

ويورد تفاسير تطور العلم بين التراكمية التطورية – التي يعتمدها مؤلف الكتاب- والثورية المرتبطة بفيلسوف العلم توماس كون.

ثم يبدأ مؤلف الكتاب جون جريبين بمدخل يوضح لماذا اختار عام ١٥٤٣م منطلقا لشرح تاريخ العلم، وذلك "بسبب بداية البحث البيولوجي لدراسة جسم الإنسان والتي تمثلت في صدور كتاب يحكي عن بنية جسم الإنسان أي في العام ذاته الذي أصدر كوبرنيكس كتابه عن دوران الأجرام السماوية، معتبراً أن هذا التوافق العرضي في العام ذاته معلم مميز وملائم لمطلع الثورة العلمية التي أدت إلى تحول أوروبا ثم العالم من بعدها. رغم قوله: "إن اختيار نقطة زمنية لتكون بداية لتاريخ العلم إنما هو اختيار تعسف" وهذا الأمر سوّغ له حصر بحثه في نطاق جغرافي وفي حدود المدى الزمني لهذا العرض، بهدف تحديد معالم تطور العلم الغربي بداية من عصر النهضة وصولاً بشكل تقريبي إلى نهاية القرن العشرين، هذا الاهمال هل كان مقصودا لجهود الشرق؟

نعم!

وسنجد ذلك أيضا في ثنايا الكتاب.

الجزء الأول

قسّم المؤلف عمله إلى ٥ أقسام رئيسية أطلق على كل قسم اسم كتاب، وكل كتاب يشمل عدد فصول مغطيا الفترة من عام ١٥٤٣م وحتى عام ٢٠٠١م.

الكتاب الأول (الخروج من عصور الظلام)، فصله الأول (رجال عصر النهضة) يتحدث عن جهود كوبرنيكس حول مركزية الشمس وكتابه (عن دوران الاجسام السماوية) ويعرج على قضية برونو الذي تم إحراقه، ليفاجئنا المؤلف بقوله: "كثيرا ما ذهب البعض إلى أن برونو تم حرقه بسبب دعمه لنموذج كوبرنيكس وحقيقة الأمر أنه كان بالفعل زنديقا "مهرطقا" وتم حرقه بسبب معتقداته الدينية"!

ثم يعرض المؤلف جهود عالم التشريح اندرياس فيساليوس صاحب كتاب "عن بنية جسم الانسان" وكذلك وليام هارفي صاحب اكتشاف الدورة الدموية.

في الفصل الثاني (آخر الألغاز) يكاد يفرده لعالمين فلكيين هما تيشو براهي وكبلر صاحب القوانين الثلاثة في حركة الكواكب، أما فصله الثالث (العلماء الأوائل) فيعرض لجهود وليام جيلبرت الذي تأتي أهميته أنه مؤسس المنهج التجريبي في العلم، وحدد موقفه منذ البداية الأولى في مقدمة كتابه (عن المغناطيسية) إذ قال: "عند اكتشاف الأمور الملغزة، وعند بحث الأسباب الخافية، نهتدي إلى أقوى الأسباب عن طريق التجارب المؤكدة والحجج المدعومة بالبرهان، وليس عن طريق تخمينات محتملة، أو آراء رهن تأملات فلسفية".

وكذلك جهود العالم المشهور جاليليو – الذي سماه المؤلف (العالم الأول)– الذي انتصر للمنهج العلمي، فقد كتب جاليليو رأيه بشأن إيمانه بنموذج كوبرنيكس، ولكن عند سؤاله عما إذا كان ذلك يتعارض مع النص المقدس، أجاب جاليليو: "عندما يثار خلاف في الرأي بشأن ظواهر طبيعية، يتعين علينا حينئذ الا نبدأ بمرجعية النص المكتوب بل بمرجعية التجربة الحسية والبراهين الضرورية التي تثبت صحة ذلك".

وفنّد المؤلف الأساطير التي كُتبت عن جاليليو وأشهرها عبارة "لكنها تدور" التي يقول عنها المؤلف: "ليس من دليل على الإطلاق أنه تمتم قائلا عبارته الشهيرة"!

الكتاب الثاني (الآباء المؤسسون) يبدأ من الفصل الرابع (العلم يقف على قدمين) الذي شرح المؤلف فيه جهود ديكارت (لعل أهمها الهندسة التحليلية التي ربطت الجبر بالهندسة) وهوجينز في البصريات والنظرية الموجية للضوء وروبرت بويل (الذي يمثل الضوء الهادي والرائد لتأسيس المنهج العلمي في إنجلترا).

في الفصل الخامس (الثورة النيوتنية) عرض المؤلف جهود نيوتن بالتفصيل؛ حيث يعتبر المؤلف عام ١٦٨٧م - وهو العام الذي نشر نيوتن كتابه الملحمي (برينكيبيا ماتيماتيكا أو المبادئ الرياضية) - عاما مهما بل مفصليا في تاريخ العلم، فقد أرسى فيه نيوتن أسس الفيزياء برمتها، التي عبر عنها البابا إسكندر وقتها بقوله: "غمر النور كل شيء".

وعرض المؤلف أيضا جهود هوك وهالي.

في الفصل السادس (الآفاق تتسع) استكمل المؤلف أعمال هالي، ثم التفت إلى علم الأحياء ليعرض جهود كارل لينايوس في تصنيف وتسمية الكائنات الحية وجورج كوفيير عن الانقراض وأعمال لامارك عن التطور، وكذلك في علم الأرض يتحدث عن جهود كونت دي فون وجين فورييه عن عمر الأرض.

الكتاب الثالث (التنوير) ويشمل الفصل السابع (طفرة الكيمياء) شارح المؤلف فيه جهود بريستلي وكافنديش ولافوازييه في ترسيخ علم الكيمياء الحديث، وكذلك الفصل الثامن (التقدم على جميع الجهات) عرض المؤلف دراسة الكهرباء على يد فرانكلين وكولومب ولميكانيكا بعد نيوتن على يد لابلاس وكذلك الحرارة والجيولوجيا.

الجزء الثاني

يفتتح الجزء الثاني بالكتاب الرابع (الصورة الكبرى) شاملا الفصل التاسع (الثورة الداروينية) التي خصصها المؤلف للحديث عن نظرية التطور وجذورها التاريخية أتساقا مع

منهجه التراكمي في تطور العلم، ليفرد هذا الفصل لكل من داروين و والاس ولا مارك، وفي الفصل العاشر (الذرات والجزيئات) يدور حول تطور مفهوم الذرة على يد دالتون والكيمياء الكهربائية على يد همفري، وترتيب الجدول الدوري على يد مندلييف، والتفت المؤلف لتطور الداينميكا الحرارية على يد جول وكالفن وبولتزمان، مع الإشارة لأعمال آينشتاين على الحركة البروانية.

في الفصل الحادي عشر (لنسمح بالضوء) عرض المؤلف جهود فارادي وماكسويل في الكهرباء والمغناطيسية، تلك الجهود التي مهدت للنسبية الخاصة لآينشتاين التي عرضها المؤلف أيضا، ثم يأتي الفصل الثاني عشر (ختام نشوة العلم الكلاسيكي) ليعرض المؤلف جهود العالم ألفرد فيجنر حول حركة القارات وقصة عصور الجليد.

الكتاب الخمس والأخير (العصور الحديثة) يبدأ بالفصل الثالث عشر (الفضاء الداخلي) ليغوص المؤلف في عالم الذرة عارضا تطور نظرية الكم أو الكوانتم من اختراع الأنبوب المفرَّغ حتى بدايات نظرية الأوتار، مارا بالاكتشافات

المثيرة لجسيمات الذرة من النيترون والإلكترون والبوزيترون وغيرها.

في الفصل الرابع عشر (عالم الحياة) يعود المؤلف لتطورات علم الأحياء من مندل عام ١٨٦٥م وقوانينه المشهورة حتى مشروع الجينيوم البشري ٢٠٠١م، مرورا بدراسات الكروموسومات على يد توماس مورجان عام ١٩١٥م وأعمال لينوس بولينج واكتشاف تركيب شريط د ن ا عام ١٩٥٣م.

في الفصل الخامس عشر والأخير (الفضاء الخارجي) عرض المؤلف الجهود التي بذلت في علم الكونيات والفلك الحديث- مجال تخصص المؤلف- حيث شرح النسبية العامة لآينشتاين وأعمال هابل في اكتشاف تباعد المجرات وقضية توسع الكون ونظرية الانفجار العظيم.

وفي الختام (متعة اكتشاف حقائق الأشياء) يعرض المؤلف عدد من الأمور حول تاريخ العلم بعد هذه الرحلة المضنية التي يقول أنها: "إنني لا أزعم أن الكتاب هو القول الفصل في تاريخ العلم، إذ لا يوجد كتاب كهذا".

ويقول: "على الرغم من أن عملية إنجاز العلم هي نشاط شخصي، فإن العلم ذاته في جوهره إنجاز لا شخصي. إنه يتضمن حقائق مطلقة وموضوعية".

ولعل أهم ما يؤكد عليه المؤلف في ثنايا كتابه رفضه لنظرية توماس كون حول تفسير تطور العلم بالثورية، هذا الرفض يقول به صريحا في الختام "والجدير بالذكر أن أهم رؤية أقمها هنا وآمل أن أكون قد عرضتها واضحة، هي رفضي فكرة توماس كون عن "الثورات" في العلم، وعندي أن تطور الموضوع تراكمي في جوهره، خطوة تتلوها خطوة".

يحدثنا توماس كون Thomas Kuhn فيلسوف العلوم في كتابه "بنية الثورات العلمية" أن أي نظرية علمية تخضع لبراديم Paradigm وهو نموذج إرشادي تتحرك ضمنه، فإذا لم يصمد هذا البراديم للنتائج الجديدة والظواهر الطارئة ننتقل إلى براديم جديد يستوعب هذا التغير وتسمى هذه النقلة ثورة علمية Scientific Revolutions .

تعقيب

كانت رحلة ممتعة رحل بنا المؤلف في تاريخ العلم، ذلك التاريخ المجهول للكثير منا، لكنه المحيط الذي انبثقت منه درر العلم لمن نالها.

لكنني أحب أن أشير إلى تحيز المؤلف للعلماء الغرب؛ بدا هذا واضحا من اختياره لعام ١٥٤٣م بداية انطلاق العلم وكأنه طارحا جهود الحضارات الشرقية جانبا مركزا على إنجاز الغرب، وهل هناك علم شرقي وآخر غربي؟

العلم تراث الإنسانية جمعاء، وكل حضارة شاركت بجزء في هذا المعمار الشامخ.

وصورة أخرى من تحيزه للغرب وعلمائه وهي عدم إشارته مطلقا للعالم العربي أحمد زويل في كتابه رغم أن أعمال زويل هي تطوير مهم لأعمال لينوس بولينج لطبيعة الترابط الكيميائي، بل وقد شغل زويل كرسي لينوس عام ١٩٩٣م!

ومن قصور الكتاب أيضا أن المؤلف لم يتطرق لتطور دراسات الخلايا الجذعية ولا تقنية الاستنساخ رغم تطرقه لأغلب إنجازات علم الأحياء.

أقتصر المؤلف على العلم الطبيعي فقط ؛ فهو لم يتناول إلا علوم الفيزياء والفلك والكيمياء والأحياء والأرض والتشريح، وليته ضم الرياضيات مع هذه العلوم من باب أنها مرتكز لعلوم كثيرة منها.

أخيرا أقدم التحية للمترجم القدير الأستاذ / شوقي جلال على ترجمته الرائعة لهذا الكتاب، ومثلها المقدمة التي بدأ بها الكتاب (تاريخية العلم ..المعنى والدلالة)، ولعله أكثر الذين يعرفون رفض المؤلف لفكرة توماس كون عن "الثورات" في العلم، في كتابه "بنية الثورات العلمية"، فشوقي جلال فهو منْ ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ضمن سلسلة عالم المعرفة – كما أشار هو في سياق تقديمه.

***

الهمداني عالما تجريبيا *

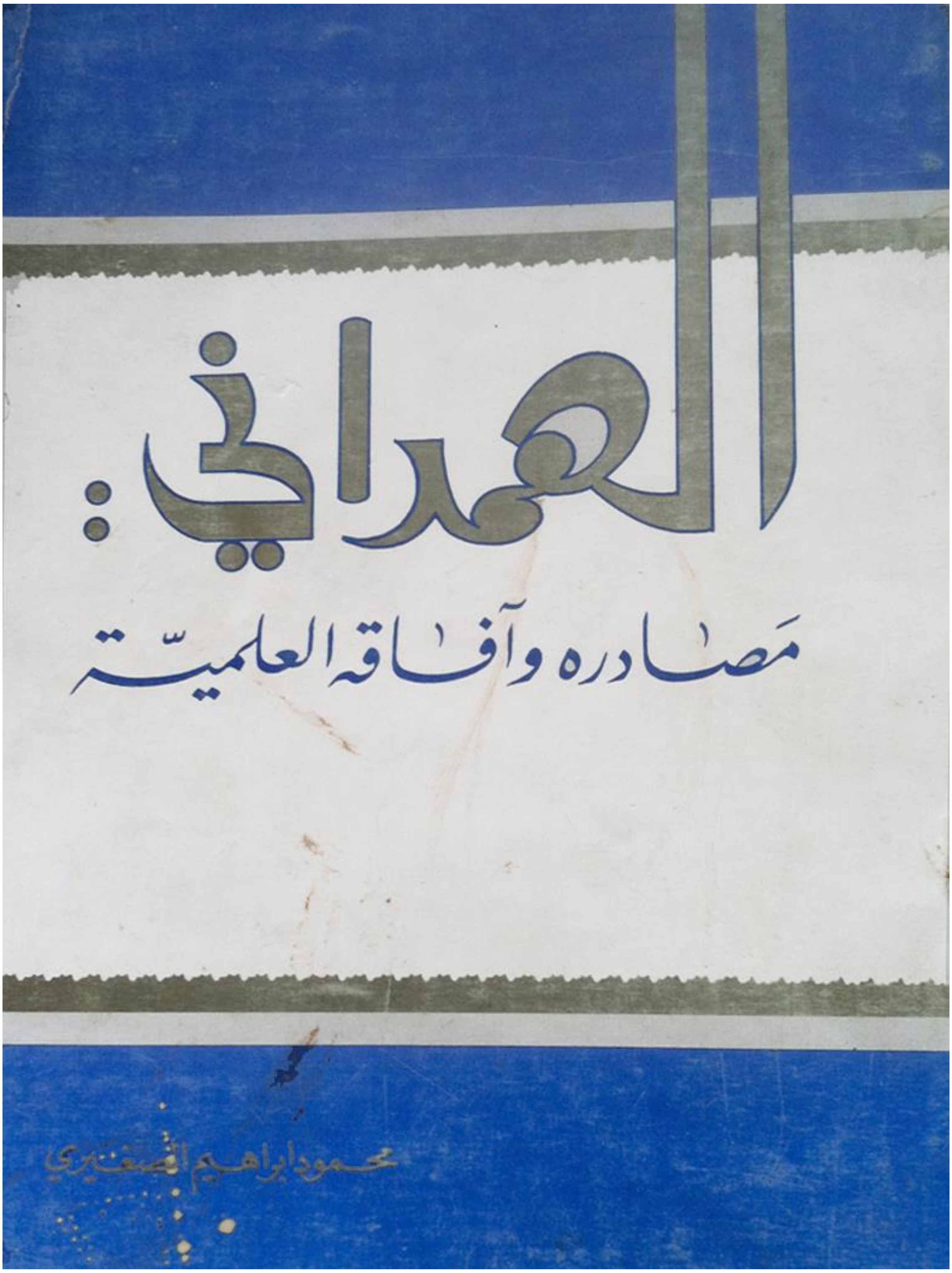

* نشر المقال في صحيفة الجمهورية – اليمنية - بتاريخ ١٣ مايو ٢٠١١م

عرفنا الحسن الهمداني – لسان اليمن- رجل تاريخ وآثار لا يشق له غبار وتشهد بذلك موسوعته العظيمة – الإكليل- التي لم يصل لنا من أجزائها العشرة إلا أربعة أجزاء إلى جانب قصيدته الدامغة وصفة جزيرة العرب وغيرها، لكن أن يكون الهمداني عالم فيزياء أو كيمياء فهذا هو الذي لم نعرفه.

فحينما وقع بين يدي كتاب الباحث / محمود إبراهيم الصغيري الموسوم (الهمداني مصادره وآفاقه العلمية) ظننت لأول وهلة أن المقصود بآفاقه العلمية هو علم التاريخ وما يتعلق به مما نبغ به الهمداني، لكني بعد قراءتي للكتاب اتضح أن الآفاق العلمية تلك تدور حول موضوعات علمية طبيعية بحتة كنظرية الهمداني في الاحتراق ومفهومه لظاهرة الجاذبية الأرضية وأخيرا مساهمته في التعدين من خلال كتابه (الجوهرتان العتيقتان).

الكتاب يقع في أربعة فصول، الأول دار حول توثيق السيرة الذاتية للهمداني من مصادره، والفصل الثاني يستعرض جهود علماء أوروبا لتفسير ظاهرة الاحتراق مدرجا نظرية

الهمداني، أما الفصل الثالث فيدور حول آراء العلماء العرب والأجانب في تفسير ظاهرة الجاذبية من أرسطو حتى نيوتن، وآخر فصل فيتحدث عن الهمداني وريادته العربية لعلم الأراضة (يشمل الجيولوجيا والتعدين) من خلال كتابه الجوهرتان العتيقتان نموذجا.

وفي هذه العجالة سأكتفي بالوقوف حول ما ذكره المؤلف في الفصلين الثاني والثالث حول نظرية الاحتراق وظاهرة الجاذبية وماذا قدمه الهمداني.

ويجب أن نعرف أن العصر الذي عاش فيه الهمداني هو القرن العاشر الميلادي/الثالث الهجري فهو من مواليد عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م في زمن التشرذم في التاريخ العربي والإسلامي؛ فدولة الخلافة العباسية في أواخرها والدويلات المستقلة في اليمن قد بدأت في الظهور كالزيادية والزيدية واليعفرية، والهمداني لم يُعرف عنه السفر إلا إلى مكة في صباه واستقر سبع سنوات هناك ما بين عامي ٩١٨ و٩٢٥م وعودته إلى اليمن واستقراره فيها حتى وفاته عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٢م.

الهمداني ونظرية الاحتراق

لماذا تنطفئ شمعة مشتعلة إذا وضعت فترة زمنية في داخل ناقوس زجاجي فارغ من الهواء؟

طبعا كلنا نعرف الإجابة اليوم وهي غياب الهواء – خصوصا الأكسجين – لكن هذا لم يكن معروفا في القرون السابقة؛ فقد تم تفسير ظاهرة الاحتراق بما يعرف بنظرية الفلوجستون Phlogiston Theory والكلمة من أصل إغريقي تعني الاحتراق وقد أقترحها جورج أيرنست ستال في القرن السابع عشر وتنص على أنه عندما تحترق مادة أو تصدأ فإنها تعطي مادة أعطاها هذا الاسم، وتفسير الشمعة المنطفئة – على حسب تلك النظرية- أن الهواء أثناء الاحتراق يتشبع بالفلوجستون، لذا تنطفئ الشمعة بعد فترة لأن الهواء لم يعد يحتمل تكثر من ذلك.

سيطرت هذه النظرية على الكيميائيين حتى عام ١٧٨٣م حيث نشر العالم الفرنسي أنطوان لافوازييه كتاب (خواطر حول الفلوجستون) نادى فيه لإلغاء نظرية الفلوجستون

والأخذ بنظرية الأكسجين الذي اكتشفه جوزيف بريستلي في عام ١٧٧٤م أنه عامل الاحتراق وكذلك عامل التنفس.

لكن أين الهمداني من ذلك؟

في الجزء الثامن من الإكليل في باب القبوريات يعترض الهمداني على خبر مفاده أن رجلين دخلا مغارة وأمضيا فيها وقتا طويلا وهما يحملان شمعة يستدلان بها على رؤية الطريق المتعرجة والعميقة، فيقول: "هذا الحديث فيه زيادة لا تمكن لأنهم ذكروا المسلك في المغارة ثم دخولهم منها إلى (هوة) وأبيات فقلّ بها النسيم ويعجز بها التنفس ويموت فيها السراج ومن طباع النفس وطباع السراج أن يحيا ما اتصل بالنسيم فإذا انقطع في مثل هذه المغارات العميقة والخروق المستطيلة لا يثبت فيها روح ولا سراج".

وفي موضع ثاني يقول: "ويقبل الماء النار عن حاجز وتقبل النار الهواء وتقوى به لاتصالهما ولا تبقى في موضع لا هواء فيه".

وغيرها من المواضع التي يوردها المؤلف الصغيري في كتابه.

طبعا الهمداني لم يقل عنصر الأكسجين لكنه ربط بين هواء التنفس وبين الهواء الذي يمد عملية الاحتراق للبقاء، ولا ننسى أن هذا الرأي في القرن العاشر الميلادي أي قبل لافوازييه وبريستلي بثمانية قرون كاملة.

الهمدانى وظاهرة الجاذبية

أما ظاهرة الجاذبية الأرضية فيقدم المؤلف الصغيري إسهابا حول تطور مفهوم الإنسان لظاهرة الجاذبية منذ أرسطو وما قدمه العلماء العرب مثل ابن سينا والإمام الرازي والبيروني وأبو البركات البغدادي وكذلك العلماء الأوروبيين السابقين لنيوتن مثل كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو وأخيرا صاحب الاكتشاف المعروف إسحاق نيوتن عام ١٦٧٧م حسب نظريته التي تنص: "على أن قوة الجذب بين جسمين تتناسب طرديًا مع كتلة كل منهما، ومعني ذلك أنه كلما زادت كتلة أي من الجسمين زادت قوة الجذب بينهما".

لكن الأغرب ما قدمه البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ، ٩٧٣ - ١٠٤٨م) في مناقشاته للعلماء الذين اعترضوا على دوران الأرض حول نفسها فقالوا: "إن الارض لو هكذا دارت إذاً

لطاردت من فوق سطحها الاحجار واقتلعت الأشجار"، فرد البيروني: "هذا لا يقع لأنه لابد لنا من أن ندخل في الحسبان أن الأرض تجذب كل من عليه نحو مركزها"، وفي موضع آخر يقول: "والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة وعليها أيضا نزول الأثقال إلى الأسفل" وإذا كان هذا هو كلام البيروني الذي ولد بعد وفاة الهمداني (توفي عام ٣٦٠هـ) فإن للهمداني قولا في كتابه الجوهرتان العتيقتان – في سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من أركان ومياه وهواء – "فمن كان تحتها – تحت الأرض – فهو في الثبات في قامته كمن فوقها ومسقط قدمه إلى سطحها الأسفل، كمسقطه إلى سطحها الأعلى وكثبات قدمه عليه فهي بمنزلة حجر المغناطيس الذي تجذب قوة الحديد إلى كل جانب. فأما ما كان فوقها فن قوته وقوة الأرض تجتمعان على جذبه وما دار به فالأرض أغلب عليه إذا كان الحديد مثلا يسير أجزاء الحجر والأرض أغلب عليه بالجذب لأن القهر من هذه الحجارة لا يرفع العلاة ولا سفله الحدّاد".

أليست نظرة ثاقبة في ذلك العصر – القرن العاشر الميلادي- بل ومتجاوزة نظرة نيوتن نفسها- إذا صح هذا الرأي- لأن

الهمداني ربط الجاذبية بالأرض نفسها – أي بالكتلة- في حين ربطها نيوتن بالأجسام ببعضها البعض.

إلى جانب أن الهمداني جعل الأرض مثل المغناطيس الذي يصنعه حوله مجال مغناطيسي وهي هنا مجال جذبي، وهذه الأفكار قريبة لما قدمه آينشتاين في نسبيته العامة حول مجال الجذب الذي تصنعه الأرض وهذا المجال يسمى الجذبومغناطيسية أو المغناطيسية الجذبية gravitomagnetism وقد تم اختباره من قبل ناسا عام ٢٠٠٤م.

وفي الختام قد يقول قائل :- وما الفائدة من إظهار هذه العلوم؟

أقول من أهم الفوائد هو إعادة كتابة تاريخ العلم مرة أخرى حتى لا ننسى الرواد من علمائنا العظام الذي يتصدرهم في اليمن الحسن الهمداني في علوم متعددة.

***

ثوْرات وخيْبات وأشياء أخرى *

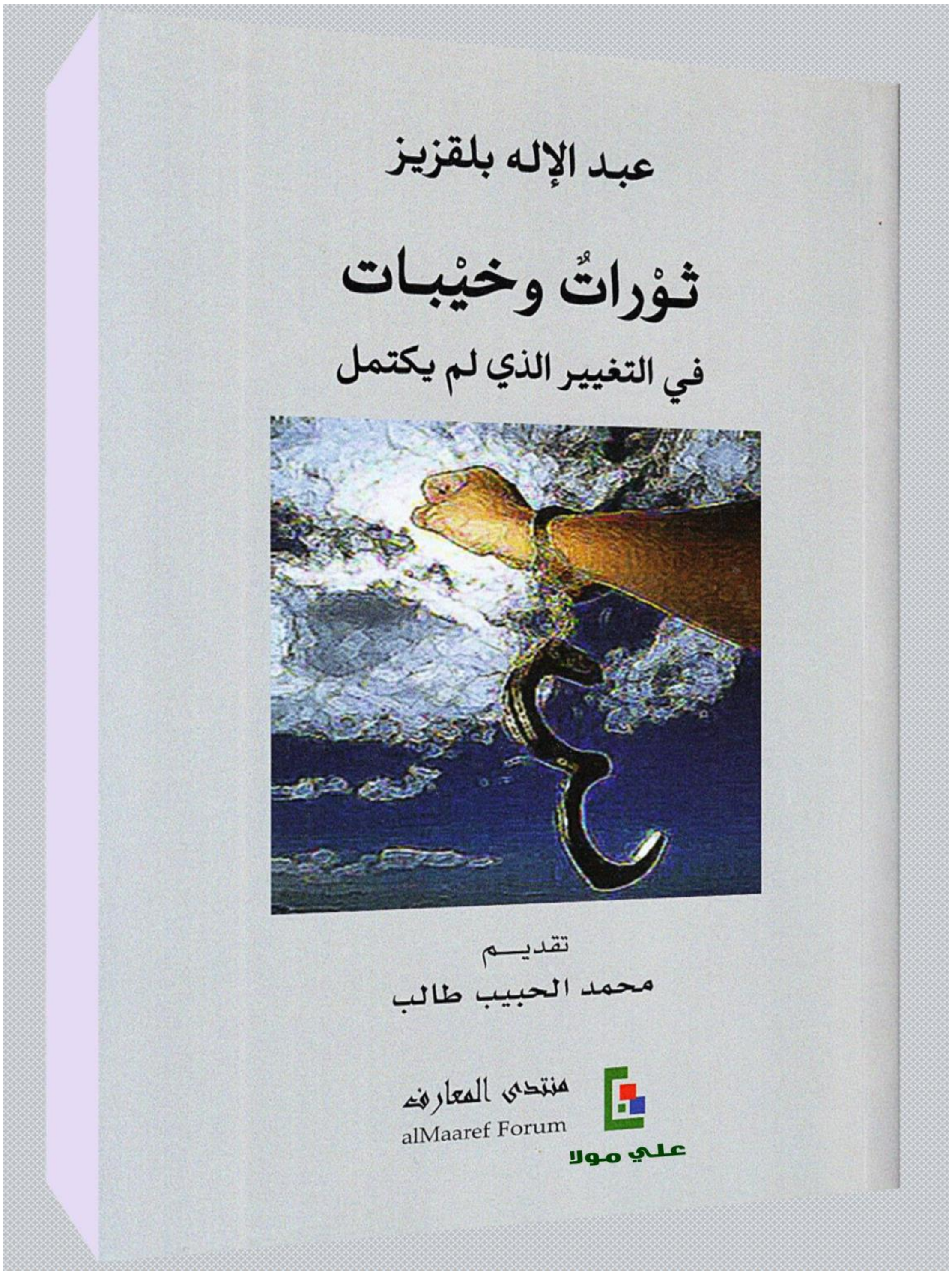

* نشر المقال في صحيفة مأرب برس – اليمنية – بتاريخ ٢٩ سبتمبر ٢٠١٣م

"من المبكر جداً الحكم على ما جرى من تحولات عربية، لأن سياقاتها ما تزال ممتدة وتداعياتها متفاعلة وتأثيراتها متنقلة وقواها الاجتماعية في حيالة سيولة وبيئاتها الحاضنة متعددة المصادر وليست داخلية حصراً".

بهذه العبارات يقدّم المفكر المغربي / عبدالإله بلقزيز كتابه "ثورات وخيبات" الذي جمع فيه ٥٩ مقالاً كتبها في عام ٢٠١١م ، في قراءة أحداث ثورات الربيع العربي، وهو إن كان معرِضاً عن تصنيف تلك المقالات، كل باب منها ببلد من البلدان العربية التي تناول الأحداث فيها، بل جمع المقالات بحسب تاريخ نشرها حتى يترك لقارئها فرصة الحكم على وعي تاريخيته في احتفاليته وحزنه وأمله وخيبته في وجوه متباينة ومتعاقبة من وعي كاتب هذه المقالات، لكنني رأيتُ عرض كل بلد من بلدان الربيع العربي على حدة لكي لا تتشتت أفكار القارئ.

التاريخ يبدأ من تونس

هكذا حيّا الكاتب ثورة تونس بمقال يحمل هذا العنوان بل واعتبرها "أول ثورة اجتماعية وشعبية حقيقية في التاريخ

العربي المعاصر لأنها لم يقدها جيش أو طائفة أو مذهب أو قبيلة وإنما مجتمع مدني حي ومندمج"، فكان "الظفر بالبغيّة" ـ كما يقول ابن خلدون ـ هو ما انتهت إليه الثورة التونسية في الرابع عشر من يناير عام ٢٠١١م، ثم تحدث عن اللحظات الثلاث في ثورة تونس وهي لحظة هروب بن علي ثم لحظة رفض تنصيب الوزير الأول في الحكومة المنحلة محمد الغنوشي رئيساً مؤقتا واخيراً لحظة إخراج "التجمع الدستوري" الحزب الحاكم سابقاً من مشهد السلطة والسياسة في البلاد، ونبّه على مسألتين أساسيتين في مستقبل الثورة التونسية؛ أولاهما تتصل بما نبهنا عليه من محاذير، ودعاها إلى الحيطة والتيقظ من محذور الفراغ السياسي والدستوري الذي يمكن أن يفاجئ الثورة في أية لحظة إن استفحل، وثانيتهما تتصل بالحاجة إلى خروج المجتمع السياسي التونسي، والحزبي منه بخاصة، من حال الجدل السياسي حول الحكومة ومن يكون فيها، ومن لا يكون، بما يستجده ذلك الجدل على القوى السياسية من استنزاف للجهد والوقت، وما يكرسه من عادات وقيم غير سليمة وغير صحيحة في العلاقات المتبادلة بينها، إلى حال

أخرى من الجدل الخصب والضروري حول مستقبل البلد وثورته.

مصر في الواجهة

تأتي مصر بثقلها في الكتاب حيث بدأ المفكر بلقزيز التركيز عليها من "ليلة رحيل حسني مبارك" حيث يقول عن هذا الأخير: "لم يكن السيد حسني مبارك رئيساً مقنِعاً في نظر شعبه، كان رجلاً عادياً من عامة الناس من حيث ملكاته الذهنية، أدرك الشعب ذلك من اليوم الأول لتوليه الرئاسة - قبل ثلاثين عاما - فأمطره بوابل من النكات المناسبة" وهم الذين لم يعرهم مبارك أي أهمية في خطابه الأخير، الذي عنون الكاتب مقاله عنه بـ"حسني مبارك باق، فليشربوا من البحر"!

ويحذّر الكاتب من خطرين يتهددان الحراك الشعبي في مصر وهما: خطر التدخل الأجنبي السافر في شؤون الثورة وخطر النزاع المبكر على السلطة بين القيادات، ويبدو أن الخطر الثاني ما تحقق في عام ٢٠١٣م، رغم أن عبدالاله بلقزيز كتب مقاله التحذيري في ٦ - ٢- ٢٠١١م ؟!

ذهب بعد ذلك في مقالات عدة يقارن بين الثورتين التونسية والمصرية من حيث احتيازهما على النصاب الشرعي وأنهما انتصرتا من دون أن يقودهما حزب سياسي وغيرها، بل والمقارنة بين وجوه الشبه بين المخلوعين من تمسك بالسلطة وإطلاق الأقارب على المال العام والإفساد المنهجي للحياة السياسية.

يرى الكاتب أن الثورتين من الثورات التي لا تتوقع فيقول "من الثورات ما يشبه السحب المؤذنة بالأمطار، وحتى ما يشبه الأعاصير، فيكون شأنها في حكم التوقع، ومنها ما يشبه الزلازل والبراكين المفاجئة لا يقبل التوقع، وثورتا تونس ومصر من هذا النوع الأخير"، ثم عرض الكاتب فرضيات وجملة واسعة من اليقينيات والفرضيات في الوعي السياسي العربي بدّدتها وقائع الثورتين التونسية والمصرية ونتائجهما في البلدين، وفي مجموع الوطن العربي، منها : استحالة الثورة والاستثناء العربي والامتناع الديموقراطي وأن العوازل بين المجتمعات العربية أوهن من عوامل الوحدة والتواشج النفسية والثقافية التي تسري فيها وبينها.

ليبيا جماهيرية الجنون

ليبيا واحدة من دول الربيع العربي، لكنه بلد له خصوصيته التي لا تمت بصلة إلى الدول الأخرى القائمة بجواره؛ فسماها الكاتب "جماهيرية الجنون"، ووصفها بقوله: "إنها صُنعت كي تكون عصية على المضاهاة ومتفردة في التكوين والشخصية بحيث لا يضارعها نظام سياسي في الكرة الأرضية، فـ"دولة" العقيد مزيج من مؤسسات الضبط الاجتماعي الحديثة، مثل أجهزة الأمن والمخابرات والجيش ومليشيات الأبناء المدربة والمنظمة على أحدث طراز، ومن بداوة سياسية تنضح منها ومن نظام اشتغالها.

الخيمة المنصوبة في العراء والجهاز الأمني المندس في تفاصيل النسيج الاجتماعي، رمزان لذلك التجاور الغريب بين البداوة و"الحداثة" في جماهيرية العقيد البائسة" إلى درجة أن الشعب هناك يجب أن يرفع شعار "الشعب يريد بناء النظام" لا اسقاطه لأنه لا نظام قائم ليسقط، بل بلد ظل أسير شخصية العقيد القذافي الغريبة التي تحتاج - كما يقول الكاتب - إلى تحليل نفسي وليس سياسي!

في ظل ذلك يلتمس الكاتب لأهل ليبيا طريقتهم العنيفة في إسقاط العقيد فيقول: "لم يكن في وسع الشعب الليبي أن يغير نظامه بالوسائل السلمية الديموقراطية، على نحو ما فعل الشعبان التونسي والمصري، فلقد شاء العقيد أن يُنهي حكمه بمثل ما بدأه: بالسلاح والقتل، ولم يترك للشعب من سبيل سوى أن يحمل السلاح في وجهه فيبدأ بتحرير وطنه ومصيره شبراً شبراً، بيتا بيتا، زنقة زنقة حتى النصر".

لكنه هذا لا يبرر مباركة الجامعة العربية للتدخل الأجنبي ممثلاً في حلف الناتو في حسم المعركة في ليبيا ويعتبرها سابقة خطيرة لأن "جيوش الدول العظمى ليست جيوش مرتزقة تحت تصرف قرار الجامعة العربية، وإنما وراءها استراتيجيات ومصالح عظمى و"جداول أعمال" خاصة هي التي جاءت بها إلى ليبيا".

اليمن يصنع ثورته

التفاتاً إلى اليمن التي حيا ثورتها بقوله: "يُسَجل للشعب اليمني، وشبابه المذهل، أنه أنجز أنظف ثورة شعبية يمكن للمرء أن يتخيلها" بل يعتبرها "دُرة التاج في هذا الربيع

العربي والترمومتر الذي يقاس به معنى الثورة في دم الحراك الاحتجاجي" لأنها "نجحت في أن تعيد إلى وعينا المعنى الحقيقي للثورة: موارد الثورة تصنع ولا تستورد، وفعل الثورة فعل بالأصالة لا بالنيابة ولا بالشراكة" وليس غريباً "فاليمن خزين تاريخي لصناعتين: السيف اليماني والحكمة اليمانية، اليوم تفيض منه البضاعة الثانية" متحدثاً أن هذه الثورة صنعت الوحدة الوطنية التي تنادت أصوات بالتخلي عنها، لكن الثورة أعادت اللُحمة بين أبناء الشعب الواحد أمام النظام الذي خرج الشباب إلى كل ساحات الوطن اليمني لإسقاطه، ولا ينسى الكاتب أن يخص المبادرة الخليجية باهتمامه وما رافقها من أحداث.

في سوريا الحالة خاصة

لكن سوريا لها وضعها الخاص باعتبارها دولة "ممانعة" فالكاتب يرى أنه "في وسع أبناء الشعب السوري أن يرفعوا ما شاءوا من الشعارات في حركاتهم الاحتجاجية، فذلك من صميم حقوقهم كمواطنين، لكني أحيل من جهتي إلى الظن أن الشعار الأنسب لظروف سوريا هو الإصلاح السياسي"، بيد

أن هذا الاصلاح يحتاج إلى "مشروع سياسي وطني يكسر هذه الحلقة المفرغة وينأى بسوريا عن خيارين سياسيين خاطئين وغير مأموني العواقب: خيار المواجهة الأمنية للمتظاهرين، وخيار الدعوة إلى إسقاط النظام، فهما خياران متحالفان موضوعياً في الذهاب بسوريا إلى المجهول"، والكاتب يعوّل على بشار الأسد أن يكسر هذه الحلقة المفرغة بقرار!

فالسلطة والمعارضة جعلت المشاهد - كما يقول الكاتب -: "أمام مضاربة أيديولوجية بامتياز بين فريقين لا يقولان كل الحقيقة، وإنما بعضها الذي يصب في رصيد راويتيْهما، ليس في المشهد ملائكة وشياطين، ثمة مصالح تتضارب، ورهانات تتنازع.. قطعاً المسؤولية ليست متكافئة بين القوتين في الأدوات، لكن ذلك لا يمنع من أن تكون متكافئة في مفردات السياسة وأخلاقها"، والحل هو التسوية السياسية التي لا مهرب منها تتبناها المجموعة العربية بما سماها "خطة العمل العربية" تقطع الطريق - ولو مرحلياً - على أي تدخل دولي تسعى فيه تركيا وفرنسا والولايات المتحدة بجدول أعمال سياسي آخر لا يلحظ فيه مكانة للنظام

القائم، وتتوسل فيه أدوات قانونية "القانون الدولي"، وأدوات "تمثيلية" داخلية، ومطالبات سورية معارضة بـ"الحماية الدولية".

أشياء أخرى

في الكتاب تمجيد جميل للحلول الإصلاحية الاستباقية التي حدثت في المغرب وسلطنة عمان، لأن "الحاكم اليقظ والنبيه هو منْ يستبق لحظة الثورة ويستوعبها لا بالقمع الدموي، إنما التجاوب الشجاع مع المطالب الإصلاحية المشروعة التي لا يهتز توازن النظام إن هو أجابها إيجاباً"، ويقدّم الكاتب عدة من المفاهيم السياسية عن الثورة والديموقراطية والتسوية..الخ مبثوثة في كل مقالات الكتاب، مفنداً في الوقت ذاته الكثير من الشبهات حول الشباب والثورات العربية التي قيل أنها صناعة أجنبية كما في مقال "الثورات العربية من صنع محلي" مستعرضا حججه في ذلك، ومستشرفاً مالآت الثورات والأسئلة عنها التي لم ننتبه إليها قبْلاً.

يصدق على الكتاب قول محمد الحبيب طالب - من قام بتقديمه - "إن الكتاب يكاد يكون "رواية" قريبة من المعنى الأصيل للعبارة الأدبية، رواية تُركت مصائر أبطالها الثوريين مفتوحة على المستقبل وعلى ما سيتخيله القارئ لها أيضا".

***

أين ذهب تاريخ (إب)؟ *

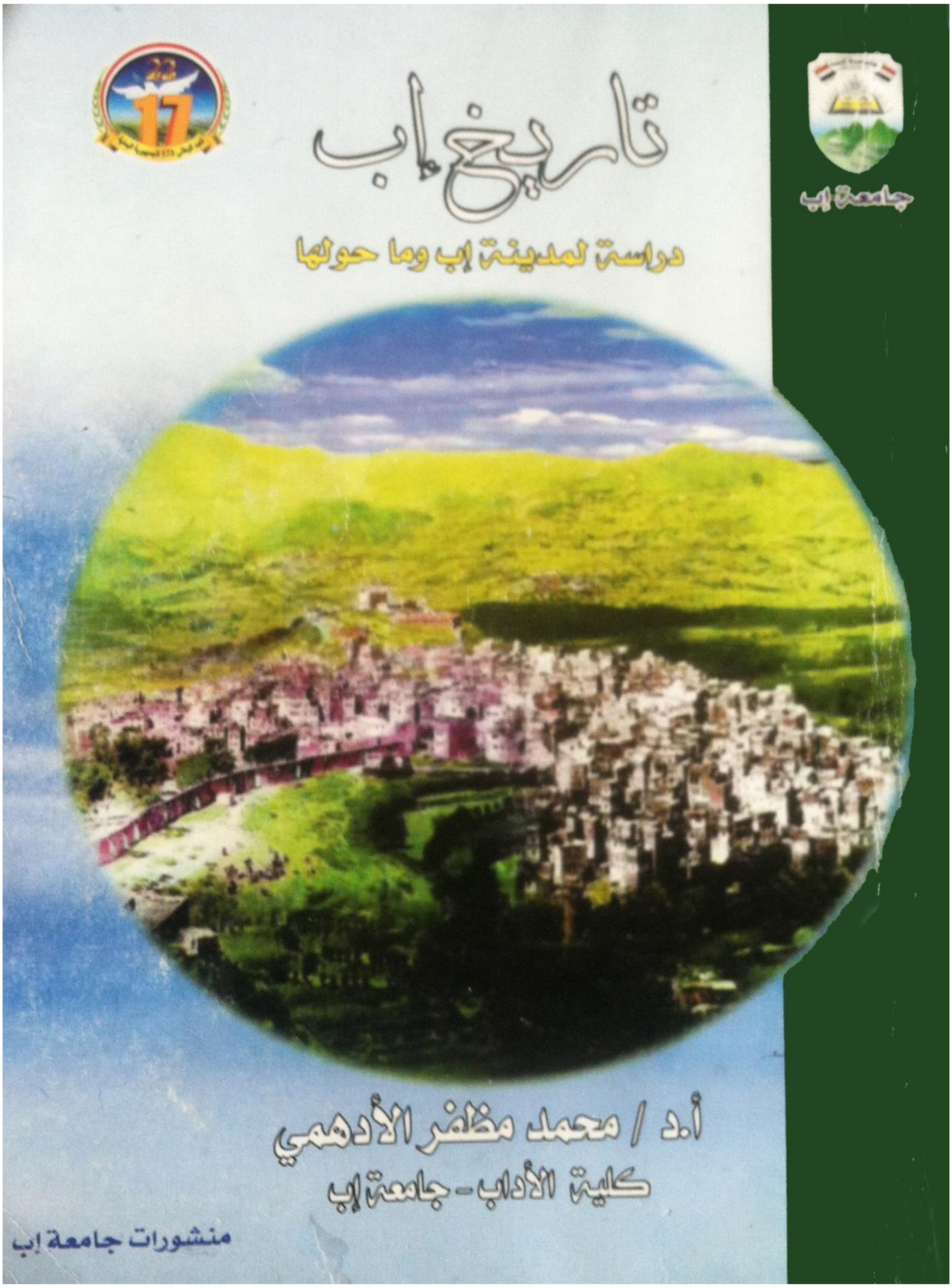

* نشر المقال في موقع التغيير نت – بتاريخ ٢٧ مايو ٢٠١٣م

لا ريب أن دراسة أي مدينة يمنية يسبب مشكلة لدى الباحثين لقلة المصادر التي تتوفر عن تلك المدينة المستهدفة، خصوصاً إذا كانت تلك المدينة لم تنل حضوراً كبيراً بسبب عدم كونها بؤرة أحداث سياسية أو حضارية.

ومدينة (إب) ينطبق عليها هذا الكلام فهي لم تنل حضور صنعاء أو مأرب أو حتى مدينة ظفار التاريخية القريبة منها، كل هذه الظروف وضعت أمام الدكتور محمد مظفر هاشم الأدهمي - أستاذ التاريخ بجامعة إب - وهو يعد كتابه الموسوم "تاريخ إب دراسة لمدينة إب وما حولها" الذي صدر عام ٢٠٠٧م ضمن منشورات جامعة إب.

والمؤلف قد أشار إلى معضلة قلة المصادر في مقدمة الكتاب بقوله "ولم يكن لمدينة إب حصة في هذه الكتب، ربما لأنها لم تكن عاصمة سياسية في يوم ما ولم تؤدِ دوراً سياسياً بارزاً ".

لكن المؤلف لم يألُ جهداً فتابع المشوار مستفيداً من الكتب المتوفرة بين يديه.

تقسيم الكتاب

تم تقسيم الكتاب إلى خمسة فصول؛ تناول في الفصل الأول موقع إب وتسميتها وسورها وأبوابها وساقيتها وما كتبه الرحالة العرب والأجانب عنها والكوارث الطبيعية التي اجتاحت المدينة.

أما الفصل الثاني فقد تناول تاريخ إب الإسلامي واستمر الحديث حتى الحرب العالمية الأولى بما في ذلك الدويلات المستقلة في اليمن كالرسولية والصليحية وغيرها ثم العهد العثماني.

وفي الفصل الثالث تناول حصن حَبْ وأهميته والمعارك التي دارت حوله عبر تاريخه، أما الفصل الرابع فتناول حصن التَعْكَرْ ومدينة جِبْلَهْ مع بعض الاستعراض لتاريخهما.

وفي فصل الكتاب الأخير تناول التعليم في إب و جِبْلَهْ مع تراجم للفقهاء المدرسين في مدارس التعليم ضمن هاتين المدينتين، واكتمل الكتاب بعد ذلك بملحق الصور التي التقطت لمناطق وأبواب وسور إب وغيرها.

البداية من الاسم

كانت التسمية التي وضعها المؤلف للكتاب "تاريخ إب دراسة لمدينة إب وما حولها" تسمية ضبابية نوعاً ما لأن كتاب التاريخ يجب أن يحدد المكان والزمان للموضوع الذي سيتناوله بالدراسة، فالمؤلف الأدهمي- بارك الله فيه - تمركز كتابه حول مدينة إب هذا بالنسبة للمكان، أما الزمان فلم يرد حدود للزمان في عنوان الكتاب وكأن القارئ سيستشف قبل قراءة الكتاب أنه سيشمل تاريخ إب في كل العصور، لكن المؤلف سيفاجئه في المقدمة أنه سيشمل إب القديمة حتى الحرب العالمية الأولى، فلا وجود لإب فيما بعد ذلك، ولا وجود لتفصيل إب قبل الإسلام، وكان المؤلف يستطيع أن يتخلص من ذلك كله فيصوغ عنوان الكتاب هكذا؛ تاريخ إب الإسلامي حتى أواخر العصر العثماني مثلاً أو من عام كذا إلى عام كذا بدلاً من "تاريخ إب" على إطلاقه.

أما "ما حولها" فقد كان اختيار المؤلف لمناطق حصن حَبْ والتَعْكَرْ وجِبْلَةْ موفقاً كما أشار بقوله "الذي يسيطر على حصن حب، سواء كان حاكماً أم محتلاً عسكرياً، يسيطر

بالنتيجة على مدينة إب وما حولها وحول الحصن"، أما مدينة جِبْلَهْ فواضح أنها أصبحت العاصمة السياسية لليمن في عصر الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، فهي لا شك مؤثرة على إب.

وقد شرع المؤلف في بداية الحديث عن إب بالإجابة عن التساؤل الذي يطرح نفسه، لماذا سُميت إب بهذا الاسم؟

نقل المؤلف قول بعضهم أن اسم إب جاء من أبّ أي الكلأ، وقول الآخر أنه مأخوذ من أحد أسماء الشهور وهو شهر أغسطس (آب) الذي تكثر فيه الامطار، وقول ثالث أنه لفظ حميري من أسماء الملوك الذين تبدأ أسماؤهم بلفظة (أب) أو (إب) إلى جانب ذلك ناقش مسمى (الثَّجّة)- التي تطلق على إب أيضاً- من آراء الاكوع والحداد وغيرهم، وليت المؤلف بحث متى بدأ ظهور اسم إب في المصادر التاريخية؟ وما هو الاسم القديم لهذه المنطقة الجغرافية؟

حديث الشفاه

انتقل المؤلف موفقاً إلى شرح مقتضب للمخاليف التي شملت إب من مخلاف جعفر إلى مخلاف ذي الكلاع ونعيمة والسحول، ثم كان الحديث عن سور إب القديم؛ فبدأ بتفصيل أضلع السور ومقاساتها وأسمائها وغير ذلك.

لكن الملاحظ أن الحدث عن السور نقله المؤلف على لسان الاخ/ محمد علي صالح الصهباني الإبي - طالبه المهتم بالتاريخ- بقوله "وآخر سور أقيم في مدينة إب هو الذي تم تجديده في سنة ١١٢٠هـ أي في القرن الثامن عشر الميلادي وقام بتجديده كل من الوزيرين محسن علي الحبيشي الحريبي وأخيه الوزير صالح إثر هجوم قبيلة يافع على مدينة إب ونهبهم لها".

وقد أشاد المؤلف بجهود الأخ/ محمد علي صالح الصهباني الإبي، لكن الجهود الجيدة في كتابة التاريخ تحتاج إلى المصادر، فما هي المصادر التي أعتمد عليها المؤلف أو الذي ينقل عنه - محمد علي صالح الصهباني الإبي- هذه المعلومات عن الوزيرين الحريبين؟

فهل يصح حديث الشفاه في كتابة التاريخ؟

ربما يصح لمنْ عاصروا الحدث، لكن كيف بحدث بعيد كهذا؟

ومن حديث الشفاه في موضع آخر يقول المؤلف "ويقال أن باب سنبل نسبة للأمير سنبل الصادق أحد قادة جيش الإمام المنصور حسين بن المتوكل القاسم".

ومن ذلك أيضاً "ويقول السيد محمد علي الصهباني الإبي أنه سُمي باب (الراكزة) لأنه قائم على رأس العقبة الصعبة التي لا تستطيع الجمال الصعود إليها إلا الإنسان والحمير ويصعد إليه - أي الباب- من وادي الذَهوب والسحول".

هذا كلام جميل، لكن هل هو توثيق أم وجهة نظر؟

ويصح كلام الشفاه عن معاصري الحدث، كما نقل المؤلف في حديث عن ساقية إب من الذين شاهدوها قبل طمسها بقوله "وقد حدثنا أحد سكان مدينة إب القديمة وهو السيد ناجي يحي حسن، فقال إنه قد كان شاهد الساقية عام ١٩٣٦م قبل هدمها" ثم يورد شرحا مفصلاً للساقية بتوثيق جميل.

ومن الكتاب لمحات رائعة من مقولات الرحالة الذين زاروا إب سواء العرب كالريحاني والثعالبي وأحمد زكريا ومؤيد العظم، أو الأجانب مثل الدانماركي كارستون نيبور.

ولعل مما تداولته العامة مقولة الريحاني عن إب أنها "حفنة من اللؤلؤ على بساط أخضر مفروش في بحيرة جفت مياهها".

وفي شرح لكوارث طبيعية أصابت مدينة إب وما حولها؛ لعل أشهرها النيزك الذي ضرب منطقة (الصلاحف) جنوب شرق مدينة جِبْلَهْ في عام ٥٤٩هـ، وكذلك الطاعون في عام ٨٣٩هـ وغيرها.

وفي الكتاب تفاصيل عن انتفاضات إب ضد العثمانيين في عام ١٥٧٠م، وثورة الفقيه سعيد بن صالح في عام ١٨٤٠م وغيرها من الأحداث التي قدمها الكتاب بالتدوين والتفصيل.

قبل الختام

بعد قام المؤلف بذكر مساجد إب القديمة وحاراتها، قدّم في آخر فصول الكتاب شرحا مفصلا عن التعليم في مدينة إب وجِبْلَهْ وتطوره خلال العصور الإسلامية، ذاكرا المدارس التي تم تأسيسها في مدينة إب في العهدين الرسولي والطاهري، مع سرد أسماء المدرسين الفقهاء في مدينة إب من القرن الرابع عشر إلى العشرين الميلادي وكذلك في مدينة جِبْلَهْ.

لكن اللافت للنظر فقرة المدرسين الذين لم تذكرهم المصادر إلا مصادر المؤلف الخاصة اعتماداً على الاخ/ محمد الصهباني السالف الذكر!

إن هذا الجهد الذي قام به الدكتور الادهمي يُشكر عليه ولا شك، ويجب أن يُبنى عليه في إصدار كتب أخرى حول تاريخ إب، وأتمنّى أن تكون مركزة؛ مثلا كتاب يتناول إب الإسلامية، وآخر يتناول إب في العهد العثماني أو الصليحي وغير ذلك.

وهذا ما طلبه المؤلف نفسه في خاتمة كتابه بقوله: "إن هذا التاريخ الحافل لمدينة إب سواء في مكانتها العلمية أو

التعليمية أو في موقعها الاستراتيجي في منطقة جبال اليمن الأسفل الذي جلب بها أحداثاً مهمة وخطيرة في سنوات عمرها الطويل لتؤكد أهمية الاستمرار الجوانب الأخرى من تاريخ هذه المدينة العريقة".

***

السيرة الذاتية

الاسم: عبدالحفيظ أحمد صالح العمري

تاريخ الميلاد : ٧ ديسمبر ١٩٧٥ م

مكان الميلاد : تعز - اليمن

البريد الالكتروني: abdualamri.75@gmail.com أو alamri_75@yahoo.com

المدونة: http://knoweyes.blogspot.com (مدونة عيون المعرفة)

المؤهلات :

بكالوريوس (بك) في الهندسة الميكانيكية جامعة الانبار العراق عام ٢٠٠٠ م + دبلوم في علوم الحاسوب من المعهد الوطني للعلوم الإدارية إب ٢٠٠٨م.

الكتابات :

١/ معدا لبرنامج تلفزيونية: (لسان عربي) و(دلائل الإعجاز)

٢/ كاتبا في صحف عربية ويمنية.

المشاركات :

١/ مهرجان القصة والرواية اليمنية الرابع الذي أقامه منتدى نادي القصة اليمني (المقه) في صنعاء للفترة من ٢٠٠٨/٧/٢٨م إلى ٢٠٠٨/٧/٣٠ م .

٢/ مهرجان الأدب اليمني الذي أقامه الاتحاد العام للكتاب والأدباء اليمنيين في عدن للفترة من ٢٠١٠/٥/٢٤م إلى ٢٠١٠/٥/٢٧م .

المنشورات :

* يوجد كتاب مطبوع واحد هو (فضاء العلم) وهو مجموعة مقالاتي العلمية صادر عن دار نور ألمانيا في مارس ٢٠١٧م

https://www.morebooks.de/bookprice_offer_276735e18a510ac38b92f23935a168cc1da2a4e1?auth_token=d3d3Lm5vb3ItcHVibGlzaGluZy5jb206ODJjMmI3MGU2YWQ4ZDc1

MDNiNTdlNGRhMjc0YTk2MTA%3D&loc ،ale=gb&currency=EUR

وقد نشرت للآن ١٨ كتابا إلكترونيا هي :

١- آفاق الثقافة العلمية - ديسمبر ٢٠١٤م.

٢- عالَم الذرة - ديسمبر ٢٠١٤م.

٣- التلوث الضوضائي - ديسمبر ٢٠١٤م.

٤- الزمن من العصور القديمة إلى آينشتاين - يناير ٢٠١٥م (ترجمة) .

٥- هذا زمان النانو - يناير ٢٠١٥م (ترجمة).

٦- هل نحن وحدنا في الكون؟ - فبراير ٢٠١٥م (ترجمة) .

٧- حكاية النسبية - مارس ٢٠١٥م .

٨- عالَم من المعادلات - أبريل ٢٠١٥م (ترجمة) .

٩- ما هو الواقع؟ - سبتمبر ٢٠١٥م (ترجمة) .

١٠- عالَم يتساقط – أكتوبر ٢٠١٥م.

١١ـ عندما تقع الذرات في الحب– فبراير ٢٠١٦م.

١٢ـ التفتوا إلى الدنيا واتركوا التاريخ- سبتمبر ٢٠١٦م.

كلها صدرت عن دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

صدر عن كلاميو :

١٣ـ العيش في زمان السندوتش ـ سبتمبر ٢٠١٥م.

http://en.calameo.com/books/003269328a596353a9fd5

١٤ـ لماذا؟ أنت تسأل والفيزياء تجيب (مشاركة في الترجمة)– يوليو ٢٠١٦م.

١٥ـ أضغاث فيسبوك (خواطر وذكريات) ـ أكتوبر ٢٠١٦م.

١٦ـ ومضات النور (مقالات علمية) – أبريل ٢٠١٧م.

١٧ـ على قارعة الويب (مقالات تأملات)– يونيو ٢٠١٧م.

١٨ـ هذا الكتاب (حفيف أوراق)ـ ج١(عروض كتب)ـ سبتمبر ٢٠١٧م.

حسابى على الفيس :

https://www.facebook.com/atomsandequations

حسابي على تويتر:

(@alamri_75

***

إن عرْض الكتب واحد من صور المقالات المتعددة.

وقد أصبحت مادة عرض الكتب مادة أساسية في أغلب المجلات والمواقع الإلكترونية الرصينة التي تتفاعل مع الجديد الصادر.

عبدالحفيظ العمري